المركز القومي للترجمة

أدلبرت شتيفتر



بريجيتا

ترجمة وتقديم

محمد أبو حطب خالد



1985

سلسلة الإبداع القصصي

بريجيتا

(رواية)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1985
- بريجيتا
- أدلبرت شتيفتر
- محمد أبو حطب خالد
- الطبعة الأولى 2012

هذه ترجمة:

Brigitta

By: Adalbert Stifter

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

بريجيتا

(رواية)

تــــألـيـــف: أدلبـــرت شـــتيفتر

ترجـــمة وتقــديم: محمد أبو حطب خالد

2012

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

شتيفتر، أدلبرت، ١٨٠٥ - ١٨٦٨
بريجيتا: (رواية)/ تأليف: أدلبرت شتيفتر، ترجمة وتقديم: محمد أبو حطب خالد
ط١- القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٢
١٢٠ ص، ٢٠ سم
١- القصص الألمانية
(أ) خالد، محمد أبو حطب (مترجم ومقدم).
(ب) العنوان ٨٣٣

رقم الإيداع: ٩٦٨٤ / ٢٠١٢
الترقيم الدولى: 978-977-216-113-3
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمة المترجم

قطوف من حياة الأديب النمساوى
أدلبرت شتيفتر (١٨٠٥-١٨٦٨)
أديب عصر ما بين الرومانسية والواقعية
ومؤلف "بريجيتا"

ولد الأديب النمساوى فى الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٨٠٥ فى قرية أوبربلان **Oberplan**، وهى قرية صغيرة لا يزيد عدد بيوتها على المائة آنذاك، وتشتهر بسوقها الريفى، الذى تباع على أرضه أهم سلع القرية ومنتجاتها.

تقع قرية أوبربلان على نهر المولداو **Moldau**، أحد أفرع نهر الإلبه **Die Elbe**، وكانت تخضع لحكم إمبراطورية أسرة الهابسبورج، واسمها الحالى "هورنى بلانا" **Horni plana**، وتتبع جمهورية التشيك.

نزح إلى هذه القرية العديد من السلاف والبافاريين، الذين اقتطعوا مساحات شاسعة من غابات بوهيميا الكثيفة من أجل

إصلاحها وزراعتها، وكان يتركز جل عملهم فـــى قطـــع الأخـــشاب وتصنيعها وتجارة الأسواق المحدودة التى تقام أسبوعيًا فى مثل هـــذه القرى، وكانت تزدهر فى هذه المنطقة زراعة نبات الكتان وصـــناعة النسيج منه والإتجار فيه، ولهذا فلا عجب أن تكون مهنة والد الأديب يوهان شتيفتر **Johann Stifter** نسج الكتان والإتجار فيه.

ارتبطت قيم الأديب أدلبرت شتيفتر منذ طفولته بقـــيم القريـــة والمجتمع الريفى المبنية علـــى الجديـــة والـــصرامة فـــى العمـــل، والانضباط فى السلوك والعلاقات بين الناس، ولعل الفضل فى ذلـــك يرجع إلى جدته من والده وإلى أُمِّه فيما بعـــد فـــى إظهـــار ميولـــه الأدبية، حيث كانوا يقصون عليه أساطير الـــوطن المليئـــة بالمـــآثر والحكم والقيم، وذلك لانشغال والده بأمور التجارة وكـــسب العـــيش، وانعكس كل ذلك فى أعمال الأديب فيما بعد.

ظهرت ميول أخرى لدى الأديب فى مرحلة الطفولـــة، وهـــى رسم ما حوله، ولهذا أحضر له والده فى إحدى رحلاته علبـــة أقـــلام للرسم، موجهًا إياه ومشجعًا أن يرسم ما يرى من الناس والحيوانـــات والأشجار والمناظر التى تحيط به كافة، ويـــدخل أدلبـــرت شـــتيفتر المدرسة الابتدائية بالقرية التى ولد فيها وهو فى السادسة من عمره، وهناك تظهر مواهبه الفنية فيتعلم العزف على آلة الكمـــان، وينـــضم لفريق الموسيقى والكورال بالمدرسة، ويرى نقدة الأدب أن ازدواجية الأديب وانفصام شخصيته بدأت تطفو على السطح فى هذه المرحلـــة

من العمر، ففى اللحظات التى كانت تبرز فيها سماته الأدبية ممثلة فى حبه للقراءة وإجادته لفنون الرسم والموسيقى نجد فى الوقت نفسه تبدل الحال بشكل فجائى، ويبرز الجانب السلبى المتمثل فى الانفعال الشديد وفى الميل للعنف والقسوة فى ردود أفعاله.

انتهت فترة طفولة أدلبرت شتيفتر فى ٢١ نوفمبر ١٨١٧ مباشرة بعد وفاة أبيه، الذى مات إثر سقوطه من عربته المحملة بالأقمشة الكتانية، تاركًا الزوجة [الأم] مع خمسة أطفال، كان أدلبرت شتيفتر أكبرهم، ويتولى الجد الرعاية، وقد أثر هذا الحادث تأثيرا بالغًا فى نفسية أدلبرت الذى عاش الصدمة، وقسوة الموت والفراق، الموت الذى خلده الأديب فيما بعد حين رسم بقلمه تلك الفترة الصعبة من حياته ودور الجد المثابر فى النهوض بحياة الأسرة والعمل المتواصل فى زراعة الأرض ورعاية الأبقار لعامين كاملين، وذلك فى قصتى "جرانيت" **Granit**، و"حقيبة جدى الأكبر" **Die Mappe meines Urgroßvaters**.

كانت رغبة الأم أن يصبح ابنها أدلبرت قسيسًا، وأرسلته إلى راعى الكنيسة بالقرية ليعلمه اللغة اللاتينية والتى لم يتقبلها، ولم تتحقق رغبة الأم فأخذه الجد فى نوفمبر ١٨١٨، وأدخله دير الرهبان البينيدكتيين بمدينة كريمز **Krems** الواقعة على نهر الدانوب **Benediktiner Kremsmünster** ليبدأ رحلة التعليم الثانوى **Gymnasium**، ويجد التلميذ فى أستاذه بلاسيدوس هال **Placidus**

Hall ما يعوضه عن فقد أبيه، وسرعان ما يحدث تغير جذرى فى حياة التلميذ بعد انتقاله من حياة القرية إلى حياة الدير، التى كانت تسير وفق نمط محدد وبرنامج صارم، ويتأمل أدلبرت شتيفتر طراز فن الباروك لأبنية الدير الذى تحوطه الخضرة والماء والغابات الكثيفة من خارجه، والممرات والصالات والأفنية الواسعة والمزينة بالعديد من الرسوم والنافورات من داخله، إلا أن ذلك لم يمح من عقله الباطن حياة القرية وعشقه لغابات بوهيميا التى عاش فيها طفولته.

عاش التلميذ فترة الجيمنازيوم داخل الدير عام ١٨١٨ وحتى عام ١٨٢٦، أظهر فيها جديته وتقدمه الدراسى فى المواد كافة، ولم يعكر صفوه إلاّ صَدْمته بزواج أمه من الخباز ماير **Der Bäcker, Mayer**، عام ١٨٢٠، والتى جعلته يعيش مغتربًا وسط الأسرة، وأصابته غيرة وكراهية قاتلة نحو زوج الأم، الذى وجد فيه غريمًا لأبيه، وانتماء لأمه التى كانت له بمثابة أيقونة مقدسة.

يغادر التلميذ أدلبرت شتيفتر دير كريمز فى مطلع عام ١٨٢٦ حاملا شهادة الجيمنازيوم الثانوية العامة بتفوق متجهًا نحو الجنوب، إلى مدينة فيينا **Wien** عاصمة إمبراطورية أسرة الهابسبورج، المدينة التى اعتبرت آنذاك أهم مدن المنطقة الناطقة بالألمانية على الإطلاق، وكأشهر مدينة أوربية فى الأدب وفى الفن والموسيقى والمسرح طوال فترة حكم الإمبراطورية ماريا تريزا **Maria Theresia** (١٧٤٠-١٧٨٠) وابنها الإمبراطور فرانز يوسف الثانى، ويتقلص

حكم الهابسبورج فى فترة حكم القيصر فرانز الثانى وذلك بعد إنشاء اتحاد الراين على يد نابليون بونابرت والتى انتهت هزيمته بانعقاد مؤتمر فيينا (١٨١٤-١٨١٥) برئاسة المستشار النمساوى ميترنيخ **Metternich**، واستحداث نظام سياسى جديد لأوربا، ساد فيه تضييق الحريات وبيروقراطيات المكاتب وتحكم الشرطة والرقابة على المصنفات، وليظهر فى هذه الفترة إنتاج زاخر من الأدب المليء بالسخرية والملح الهادفة انعكاسًا لطبيعة الشعب الفيينى **Wiener Mentalität** من أمثال فردناند رايموند **Ferdinand Raimund** ويوهان نيستورى **Johann Nestroy** وفرانز جريلبارتزر **Franz Grillparzer** وفريدريش هيبل **Friedrich Hebbel**.

يعيش الأديب الشاب القادم من الريف فى خضم هذه المدينة العملاقة، وليتأمل فيها القصور الشامخة والحدائق الغناء والكنائس وأبراجها العالية، ودور الأوبرا والمسارح والبيوت ذات القباب والسطوح المكسوة بالقرميد الأحمر، علاوة على ما لم يألفه من زحم المرور وكتل البشر التى تجوب شوارع العاصمة ذات القلب النابض بالحياة.

ينتظم الأديب الشاب بكلية الحقوق ويدرس القانون، ولكن عدم ميله لهذا اللون من الدراسة وتردده وعدم حسمه للأمور، قاده إلى عدم استكمال هذه الدراسة حتى النهاية وعكف على تعلم المزيد فى علوم الرياضيات والفلك والطبيعة والأدب والرسم، وكان له فيها سهم

وافر من التقدم والنجاح، أعدته لأن يكون مدرسًا خصوصيًا فى هذه المواد لأبناء العائلات الكبيرة فى فيينا.

يعيش الأديب الشاب فى الفترة من ١٨٢٧ وحتى ١٨٣٥ قصة حب عارمة ظلت ترافقه فى ذاكرته كظله حتى نهاية عمره مع ابنة الرأسمالى جرايبل **Greipel** فانى جرايبل **Fanny Greipel** والتى خلدها بقصائد الحب كتلك التى كان يقرضها شاعر العشق كلوبشتك **Klopstocks Oden** وبمراسلات تلهب المشاعر طوال هذه السنين الثمانية، وكانت فجيعته فيها كبيرة بعد زواجها من أحد موظفى البلاط، وموتها هى وطفلتها الأولى فى أثناء الولادة بعد ثلاث سنوات من الزواج، وكان تخليده لهذه المحبوبة وعزاؤه فى موتها نتاجه الأدبى ممثلا فى قصة زهور الحقل **"Feldblumen"**، وتبدأ علاقة جديدة مع زوجة المستقبل وشريكة الحياة مع مطلع عام ١٨٣٢ مع آماليا موهاوبت **Amalia Mohaupt** ويتم الزواج فى ١٥-١١-١٨٣٧.

يعيش الأديب بعد زواجه الفترة من عام ١٨٣٧ وحتى ١٨٤٨، وهى الفترة التى سماها المؤرخون مرحلة التوازن الصعبة **Prekares Gleichgewicht**، محبطًا من حب سابق، ومحبطًا لعدم الالتحاق بوظيفة، ومحبطًا فى الرسم وفى الكتابة، ومحبطًا من عيشة العوز والضيق المالى.

ويستعيد الأديب توازنه وتبدو له باقة أمل بعد نشر ثلاث قصص له ١٨٣٥- ١٨٤٠: الكوندور **Der Kondor**، زهور الحقل

Feldblumen، قرية الربوة **Heidedorf**، وفيها ينسج الأديب خليطـا من سيرته وجهاده المرير، وليسجل فيها لغة ذهبية لم يسمع عنها امرؤ من قبل ويرسم مشاهداته التى عبر عنها فى لوحاتـه المليئة بالإحساس المرهف، والتى جسد فيها عظمة الإلـه رب السماوات والأرض، الذى لا حدود لإلوهيته وقدرته. أليس الإنسان أحد كائنات مخلوقاته، الإنسان المؤمن الذى يبحث عن كل ما هو خير، وكل ما هو جميل.

قد يكون نجاحه هذا راجعًا إلى فتـرة مستقرة وهانئـة فـى المعيشة مع زوجة ثرية وفرت له سبل العيش المادى، ويعزم أمـره للقيام بعدة رحلات يجوب فيها جبـال الألـب والغابـات والأنهـار والبحيرات، ويعاود الكتابة فى أعمال جديدة، تذكره بالأهل والـوطن فى بوهيميا، ممثلة فى قصتى "حقيبة جـدى الأكبـر" **Die Mappe meines Urgrossvaters**، و"الغابة الكثيفة" **Der Hochwald**، وهـى القصص التى تعد من أوائل روائع الأديب فـى اللغـة والأسـلوب، الجاذبة لشغف القارئ من بين مجمل إنتاجه، ويكثر النتاج ويتعـاظم مع عام ١٨٤٤: فيينـا والفينيـون **Wein und die Wiener** وقلعـة المجانين **Die Narrenburg**، وأبدياس **Abdias** اليهودى النازح من الشمال الإفريقى إلى موطن الأديب فى بوهيميا.

يقوم الأديب بزيارة لمنزل الزوجة ويجـد الفقـر والمـرض يخيمان على كل أرجاء الدار بعد خروج والد الزوجة إلـى المعـاش واستلامه عملاً جديدًا بمصنع للبارود باعتباره أحد معوقى الحرب.

يعود الأديب مع زوجته بعد هذه الزيارة المحزنة عبر بلاد المجر، مشاهدًا سهولها الفسيحة وبراريها الشامخة وغاباتها الكثيفة، والتى قدمت له الخامة الأدبية للوحات خالدة رسمها فى أثناء رحلة العودة والتى كان أحد ثمارها أقصوصة بريجيتا**Brigitta**، التى تعد أكبر وأشهر قصصه عن برارى المجر، والتى نسعد بتقديم ترجمتها إلى لغة الضاد على الصفحات التالية.

كان الأديب فى هذه المرحلة من حياته يتوق إلى المزيد من الترحال والتجوال في دنيا العالم الواسع، وكان الشوق يحرقه لرؤية روما، وإسبانيا، وتركيا، ويجذبه نحو كل بعيد وغريب، توسيعًا لأفقه ومداركه بوصفه كاتبًا حرًا، ويطرح أمور القضاء والقدر والشعور بالذنب، والثواب والعقاب، الأمر الذى جسده فى أقصوصة "اليهودى المغربى المهاجر إلى وطنه فى بوهيميا"، وأقصوصة "ظلمة الشمس" **Die Sonenfinsternis**، والتى خلد فيها روعة الطبيعة وقدرة الذات حينما يتأمل الإنسان كسوف قرص الشمس، يتكرر هذا فى أقصوصة الخاتم القديم **Der Alt Seigel** والتى أبرز فيها العلاقة السببية فى مسيرة الأحداث فيما يخص براءة النفوس، ومسيرة الزمن وقضايا القدر، وحريات التصرفات، وتبعات الماضى، وقضايا الحب والكراهية، وقضايا التشريع الأبدى لصياغة حياة خاصة يشبع المرء فيها رغباته المادية والروحية. إنها القضايا نفسها التى طرحها الأديب فى قصة بريجيتا، القصة التى تدور أحداثها فى منطقة "البوتزا"

Puszta بالمجر، وهى الثمرة الأدبية المكتملة النضج والتى تمخضت عن رحلته مع الزوجة أماليا إلى منزل والدها جنوب حدود المجر، وليرسم فيها لوحة نادرة تصف طبيعة أراضى المجر، الأراضى القفر، الجدباء، والتى تكسوها البرارى والفيافى، والتى خلدها بمجموعة من اللوحات أطلق عليها طبيعة أرض المجر **Ungarische Landschaft**.

يعرض الأديب فى قصته "بريجيتا" لموضوع القضاء والقدر فى إطار ما تخفيه أحداث الطبيعة والقدر من ظواهر، تارة جاذبة وحانية، وتارة منفرة وقاسية، يعرض الأديب فى هذه القصة علاقة متشابكة معقدة، يقوم بسردها والتعليق عليها الراوى شاهد العيان، حين تطأ قدماه أملاك وضياع صديقه الرائد "شتيفان موراى **Stefan Murai**"، الراوى الذى سرعان ما يتملكه الأحساس الصادق بأن هناك قوى خفية تربط صديقه الرائد موراى مع جارته بريجيتا، المالكة لضيعة مجاورة. وسرعان ما يتيقن أن صديقه الرائد، والبالغ من العمر خمسين عامًا، يكن فى أعماق قلبه حبًا من نوع فريد لهذه المرأة الغريبة الأطوار التى تقاربه فى العمر، والتى ينم مظهرها الخارجى عن دمامة ظاهرة وقبح ملفت، ورغما من ذلك يرى الراوى فى الرائد "شتيفان موراى" شابًا أنيقا فى مظهره بشوشا ودمثًا فى خلقه وخصاله وسلوكه، مما أكسبه حب الناس.

يتقدم موراى لطلب يدها من أسرتها، ويتزوجها لفترة لم تدم طويلاً، انتهت بانفصال غير ودى نتيجة لاقتحام امرأة أخرى جميلة

حياة الزوج، وتوطدت العلاقة بينه وبينها أيضًا لفترة محدودة، انتهت بالفراق.

يكرس الرائد موراى حياته بعد هذا الانفصال سنوات غير قليلة فى ترحال متواصل من بلد لآخر في العمل الجادّ في ضيعته وممتلكاته، ويعود أخيرًا ليستقر فى مزرعته بجوار جارته، وزوجته الأولى بريجيتا، وليعاود طلب يدها من جديد بعد الحدث المروّع لابنها مع ذئاب البرارى، وتنتهى القصة بنهاية سعيدة، على النقيض مما كان يطرحه الأديب من علاقات مأساوية فى قصصه السابقة، ويعود الوفاق والتآخى بين المحبين يحوطهما بريق الأمل ومستقبل واعد للدخول مرة أخرى فى رباط الزوجية الأبدى.

لقد عبّر الأديب على لسان شتيفان موراى بصدق عن النقاء والشفافية التى أحس بها بطل القصة نحو هذه المرأة، علاقة حب لا حدود له من جانب، وكراهية ما بعدها كراهية من جانب آخر، وهنا يكمن ما يرسمه الأديب من لغز محير: لحظة ضعف وغواية امرأة جميلة تشد الرائد لإشباع رغبة جسدية، أدوات مبهمة تحرك غرائز كامنة عند الرائد فى حبه الدائم نحو المرأة الأخرى، إنه القانون الحانى والمتوازن الذى ينجذب إليه الناس، قانون خبرة الترحال، والشعور بالحب الكامن فى القلوب وقناعة الصفح المتبادل.

يقدم الأديب بريجيتا للقارئ وهو فى الأربعين من عمره، امرأة فذة، متحررة، تمتلك ناصية أمورها وسلوكها الخارج عن كل

مألوف، مكرسة جل وقتها فى رعاية ابنها ومزرعتها وخدمها، فى جو من الألفة والود والنفع المتبادل، عمل يقوم على استصلاح الأراضى وتطويع الغابة، وتتحرك القوة المغناطيسية الكامنة فى الطبيعة لتجذب الرائد موراى نحو بريجيتا، ويسود ميزان العقل الإنسانى فى أعلى مراحله، ويتم الرباط الأبدى المقدس لحياة المسئولية المشتركة والتصرف الملتزم فى استئناس الطبيعة ورعاية الممتلكات، فى هذا النسيج المتجانس يعبر الأديب عن جزء هانئ من حياته ومعاناته: لم يعد الأديب ينظر إلى الأمور نظرة إما هذا وإما ذاك! وإما نعم وإما لا، أو هذا خطأ وهذا صحيح، لأن الواقع الذى نحياه غالبًا ما يكون ما بين هذا وذاك.

يقيم بعض نقدة الأدب هذه الحقبة الأدبية بأن أدلبرت شتيفتر قد أخرج كل ما فى أعماقه من معاناة وخبرة فى أحداث هذه القصة، وأن إحساسه الداخلى لم يعد قادرا على تحمل الواقع الأليم، وأن سيرته الذاتية لم تعد كجدول الماء المنحدر من فوق الجبل نحو مصبه ومبتغاه، هذه الأحاسيس سردها الأديب مرارا وتكرارا فى خطاباته الأخيرة إلى زوجته أماليا محاولا إصلاح ما أفسده الدهر من علاقاته معها، معلنا لها أن أى حب كبير له جوانبه المشرقة وجوانبه المظلمة، الحب العظيم هذا قد يملأ قلب إنسان ما، ولكن ليس من الضرورى أن يقوده إلى الأمان.

ويرى نقدة آخرون أن القنوط والتعاسة التى عانى منها الأديب فى حياته هى التى قادته إلى التعبير عنها فى نتاجه الأدبى وفى أحداث قصصه مبرزا خلالها الهوة الحقيقية لحياة تعيسة يتحكم فيها القضاء والقدر.

يعود الأديب ليعيش فترة قصيرة فى العاصمة فيينا، ويوثق صلاته بالعديد من مشاهيرها فى صالونات الأدب ولقاءاته بكبار أدبائها أمثال جريلبارتزر، يوسف فون هامربورجيشتال ومن خلال إعطائه الدروس لأبناء السادة وعلى رأسهم ريتشارد ابن المستشار ميترنيخ وأبناء علية القوم فى البلاط الهابسبورجى، ويعانى الأديب مرة أخرى من حياة مزدوجة، حياة المنشأ العمالى البسيط وحياة المجتمع الفينى بين الأرستقراط وعلية القوم، وفي هذا الصدد يجسد الأديب الموقف بما يلى:

"حينما أجد نفسى فى دائرة كبار القوم، ينتابنى إحساس متكرر ومتواصل، كإحساس تلميذ المدرسة عندما يقف مشدوهًا أمام ناظر المدرسة أو قسيس الكنيسة أو أسقف الكاتدرائية، ويتوقف الزمن أمام مخيلتى برهة قبل أن أستعيد توازنى والذى به أجد اللغة التى أعبر بها".

"So wie ich in den Kreis der vornehmen Leute trete, wiederholt sich in mir regelmäßig die Empfindung des Schulknaben, wenn der Direktor, der Pfarrer oder etwa der Bischof vor ihm steht. Es dauert immer eine Weile, die ich

mein Gleichgewicht und mit diesem meine Sprache wieder finde". (Matz W. S. 204)

ويمكن أن نقول بكل تأكيد إن أدلبرت شتيفتر لا يقل براعة فى إنتاجه عن أدباء مثل تيك، وهوفمان، وفوكيه وبرينتانو وكلايست.

ويُنشر للأديب فى الفترة من ١٨٤٤ إلى ١٨٤٦ القصص التى ضمنها عنوان دراسات **Studien** وهى الأعمال التى اتسمت بطابع الأدب الكلاسيكى الذى تنساب فيه الأحداث كالنهر الهادئ عبر لغة ملائكية.

يتخطى الأديب الخمسين من العمر، ويرحل العديد من معارفه من الأدباء إلى العالم الآخر وتندلع ثورة مارس/أكتوبر ١٨٤٨، وتضرب الأزمة الاقتصادية القارة الأوربية فى مقتل، ويهرب ميترنيخ إلى إنجلترا، ويسقط الحكم البروسى وينزح إمبراطور الهابسبورج فيردناند الأول إلى إنسبروك ويعود الهدوء لفترة إلى العاصمة فيينا (٤٤٠ ألف نسمة آنذاك) ويستقر الأديب فى مدينة لينز **Linz** بولاية النمسا العليا (٢٦ ألف نسمة)، وكان يتوق الأديب لأن تحكم بلاده من خلال نظام ملكى دستورى على غرار النظام الإنجليزى وتهب شعوب الإمبراطورية من غير الأصل الألمانى مطالبة بالحرية والاستقلال: المهيوريون **Mähren**، والكروات **Kroaten**، والصرب **Serben**، والمجريون **Ungarn**.

يعيش الأديب عصرا جديدا فى الفترة الباقية من حياتــه بعــد صدمة الثورة وأحداثها الدامية من عام ١٨٤٩ وحتــى عــام ١٨٦٨ وتتغير حياة الأديب ويكسر الحلقة تحت مسمى القانون الحــانى **Das Sanfte Gesetz** ليعيش فى هدوء مدينة لينز الصغيرة ويستكمل بقيــة قصصه التى ضمنها المجلد "أحجار ملونــة" **Bunte Steine** وعلــى رأسها رواية "الهزيع الأخيــر مــن الــصيف" **Der Nachsommer**، ورواية "فيتيكو" **Witiko**، ويصب الأديب فى هذه الأعمال الختاميــة عصارة فكره وركائز خبرته ويقف موقف المــدافع عــن إحــساسه، بكلام يشوبه التشاؤم والازدواجية؛ ازدواجية النبض الإنسانى ونبض فكره الأدبى، الأمل فى مقابل اليأس، الثورة فى مقابل الإصلاح، ولا ينسى الأديب مواصلة تطبيقه للقيم التربوية التى أخــذها عــن شــيخ التربويين هيردر، من هذا المنطلق يحدثنا الأديب عن القانون الحانى والمتوازن والذى يتمثل فى عظمة بعض الأشخاص التاريخية التــى يعرض لها الأدب بأنها ليست أكثر أهمية ولفتا للانتباه من شخصيات عادية وطبيعية نلتقى بها فى عالم الواقع.

يجسد أدلبرت شتيفتر قانونه الحانى كأمر ملفت للانتبــاه فــى الطبيعة وظواهرها فى حياة النفس البشرية، والتى يراها كقوى جاذبة لنظرات غير العارفين ببواطن الأمور، فمن منا لا يرى هفهفة الهواء العليل وخرير الماء، ونضوج الحب فى الحقــول وخــضرة الأرض وهدير البحر وصفاء السماء وتلألؤ النجوم والكواكب، آلاء ونعــم لا

تعد ولا تحصى تعلو هاماتها عظمة وسموًا؛ خاصة حينما تقارن بظواهر البرق والرعد التى تهدم البيوت، والعاصفة التى تضرم الحرائق، وطفح الجبال بالحمم البركانية من قممها وضربات الزلازل التى تفنى الزرع والضرع، تلك هى ماهية الطبيعة من خارجها ومن داخلها، مثلها فى ذلك مثل أى كائن بشرى.

هذا هو فكر أدلبرت شتيفتر وقانونه الحانى المؤدى إلى الصراط المستقيم، والنابع من احترامه لتقاليد وطنه ولحياته الصارمة التى عاشها فى مقتبل عمره ونظرته القانعة بعظمة الله وقدرته، ولا عجب فى ذلك أن تكون كتاباته فى هذه المرحلة حافزا ومشجعا قويا لدعم القيم الخلقية وتعميق الإحساس بالتدين، حتى أنه كان يطلق على نتاجه الأدبى بأنه "إحدى نعم وحسنات العصر".

قد يرى المرء العظمة الحقة كامنة فى الأشياء الصغيرة، وكان الأديب يستند فى كل ذلك إلى قيم هيردر التربوية التى ربطت بين الطبيعة وأحداث التاريخ، وهو بذلك يتجاهل مقولة كانط **Kant** النقدية التى تفرق بين الاثنين.

يريد أدلبرت شتيفتر منا أن نبحث عن القانون الحانى المتوازن والهادى للجنس البشرى نحو الصواب وأن نؤمن بفكرة الاعتقاد الدينى، فمنه ينبع هذا القانون العادل، قانون احترام العادة الحسنة والتقليد التراثى فى احترام الإنسان لأخيه الإنسان، وأن يسلك المرء الطريق الإنسانى المنشود حماية للآخر، مثلما يعمل هذا الآخر على حمايته.

هذا التوازن الكلى والشامل يسبغه الأديب ليس على البشر فقط وإنما على كل ما فى الطبيعة من كائنات: الدواب والنبات والصخور؛ لكل قدسيته واحترامه ويبرز الكاتب كل ذلك فى قصصه الأخيرة: "الحجر الجيرى" **Der Kalkstein** و"صاحب الأيادى البيضاء" **Der arme Wohltäter** و"الجبل الكريستالى" **Bergkristall**.

يعيش الأديب سنواته الأخيرة بمدينة لينز مواطنًا عاديًا، ويمارس وظيفة التفتيش على المدارس، ويدب المرض فى جسده الذى يفقده الحركة والتنقل ويعانى من مرض الكبد الذى يقوده للإغراق فى الشرب والانغماس فى الأكل، ولكن عزيمته على الكتابة لم تتوقف، ليحلم من جديد أن يكون العالم مليئًا بالسعادة، إنها أحلام الشيخوخة، وسرعان ما يصاب بمرض الدرن (السل الرئوى) وخاصة بعد موت أمه عام ١٨٥٨، ويضعف نظره، ويبتلى بمرض التيفود، الذى أطلق عليه الأديب "ابتلاء الأعصاب".

يحاول أهل الخير من المعارف علاجه بالسفر بحمامات كارلسباد لأكثر من مرة، ويشتد عليه مرض الكبد، ويحاول أن يسترد عافيته بعد أن منحه قيصر النمسا لقب مستشار البلاط النمساوى بمعاش كامل فى نوفمبر ١٨٦٥، ولكن هذه العافية لم تدم طويلا، ويعود إلى الإغراق فى الشرب ويعيش حالة من هيستيريا القلق والجنون، بعد معايشته للصراع السياسى والعسكرى القائم بين بروسيا والنمسا عام ١٨٦٧، والذى يقوده بسمارك **Bismarck** ضد

بلاده، ويقرر المستشار البروسى صاحب سياسة "الحديد والدم" حربا لا هوادة فيها ضد النمسا هزته من الأعماق؛ خاصة بعد رؤيته لهزيمة بلده النمسا فى ٣ يولية ١٨٦٧ فى معركة كونيجزجريتس **Königsgrätz** والتى سقط فيها ٤٤ ألف قتيل من الجانب النمساوى، و٩ آلاف من الجانب البروسى.

يودع الأديب شهوره الأخيرة برحلة إلى أرض الوطن، أرض المولد والطفولة فى بوهيميا باعتباره رجلاً صاحب شهرة ومستشارًا للبلاط، ويستقبل من بنى جلدته استقبالا حارا، وهناك يجتر ذكريات طفولته، ولكنه لا يجد راحته التى كان ينشدها من جراء ضوضاء ومشاكسة الأحفاد من أبناء وبنات إخوته، ويعود إلى مقره ومقامه فى محافظة النمسا العليا، مرورًا – بعد رحلة النقاهة الأخيرة – بحمامات كارلسباد فى أبريل ١٨٦٧، وتنتابه نوبات الصرع ويقدم على محاولة الانتحار الأولى، ويصاب بالإنفلونزا الحادة، والتى منعته من الكتابة والتزام الراحة التامة، ويكتب خطاب الوداع الأخير فى يناير ١٨٦٨ إلى صديقه جوستاف هاكن آست **Gustav Heckenast**، يؤكد يأسه الشديد من المرض وفقدان الأمل فى الشفاء، وفى ليلة ٢٥ يناير ليوم ٢٦ يناير ١٨٦٨ تدخل عليه زوجته لتجده غارقا فى دمائه، بعد أن قام بقطع أوداج عنقه بشفرة حلاقة، وتستدعى الزوجة الطبيب فى الحال ولكن بعد فوات الأوان، ويحاول الطبيب جاهدًا وقف نزيف الدم وخياطة الجرح، ليمدَّ فى أجله يومين آخرين، وتفيض روحه

صرعى مرض الجسد ومعانة الروح التى قادته إلى هـذه النهايـة المأساوية.

يقول الكاتب الألمانى الكبير تومـاس مـان **Thomas Mann** حامل جائزة نوبل فى الأدب عن أدلبرت شتيفتر بأنه أحـد جهابـذة الأقصوصة فى الأدب العالمى، والذى تميزت كتاباته بالعمق والغرابة والشجاعة الكامنة فى النفس والجاذبة للقارئ، حتـى وإن لـم تأخـذ نصيبها الكافى من التحليل النقدى.

(Matz, Wolfgang: Adalbert Stifter, oder die fürchtliche Wendung der Dinge, München, Wien 1155)

ويقول عنه عملاق الأدب الألمانى الحـديث هيرمـان هيسـه **Hermann Hesse**: يا لها من صورة مثلى يرسمها الأديب أدلبـرت شتيفتر فيما يكتب، إنها صورة الصمت والوحدة لنوعية ما من البشر ولعلاقاتهم الإنسانية المتشابكة، ينسجها خياله ممثلـة لديـه النغمـة الأساسية للأدب والاعتدال والتدين ... إنه أحد فطاحل الأدب النثرى الألمانى.

(Adalbert Stifter: Erzählung, ausgewählt und mit einem Nachwort von Hermann Hesse, 1991, Frankfurt/M., Leipzig)

من أجل ذلك نقدم هذا العمل الأدبى فى نصه المترجم بين دفتى هذا الكتاب، إيمانا منا بأن الكتاب أيا كان لونه ولغته هو الأداة المهمة على طريق التواصل الضرورى لاكتشاف القيم والمعارف وجماليات المخيلة الإنسانية، وهو الوسيلة لنقل الفكر المبدع وأساسيات تربية النشء، وفيه تتمثل ثقافات الآخرين وفيه تقرأ هوياتهم، وهو النافذة الواسعة التى تطل على مختلف الحضارات.

من هذا المنطلق بادرنا إلى ترجمة أقصوصة "بريجيتا" إحدى روائع نتاج أدلبرت شتيفتر، ونقدمها للقارئ والدارس بوصفها نموذجًا لنفثات روح هذا الأديب الكبير، فى عصر جفت فيه ينابيع الروح.

نحن نروم من بعد ذلك غايتين:

الغاية الأولى: أن نتيح لقارئ العربية الذى لم تسعفه ظروفه لتعلم اللغة الألمانية وإتقانها، حيث يقرأ مباشرة باللغة الأم مثل هذه الروائع من أعمال كبار كتاب المنطقة المتحدثة بالألمانية، ومن المؤكد أن أديبًا مثل أدلبرت شتيفتر يستحق أن يعرفه قراء العربية؛ خاصة فى الوقت الراهن.

الغاية الثانية: وربما تبدو غريبة، ولكنها ضرورية، وهى أن نتيح لدارسى العربية من مواطنى الدول الناطقة بالألمانية أن يطلعوا ويتحققوا من قدرة اللغة العربية على استيعاب الأدب المكتوب باللغة الألمانية.

أرجو من هذا التقديم الموجز، أن تبعث هذه الترجمة الحماس في نفوس القراء والمشتغلين بالأدب والترجمة؛ وخاصة العلماء القائمين على تدريسها في المدارس والجامعات، فتزيد همة القراء في تتبع روائع الأعمال الأدبية العالمية، كما تزيد جلد أرباب الترجمة والعاملين في هذا المجال المهم حتى يترجموا المزيد من هذه الروائع.

وبالله التوفيق...

أ. د. محمد أبو حطب خالد

القاهرة في ٧ من صفر ١٤٣٢هـ

الموافق ١١ يناير ٢٠١١م

الفصل الأول

الترحال فى الصحراء

كثيرا ما نجد أمورا وعلاقات فى حياة الإنسان لا تتضح لنا بيسر، كما أننا لا نستطيع أن نستنبط علتها بسرعة؛ مما يجعلها تؤثر غالبا فى نفوسنا لما لها من إثارة رقيقة وجميلة ومؤكدة دون إبهام أو غموض، فنحن نجد فى طلعة شخص قبيح شيئا من الجمال الداخلى الذى لا نستطيع استجلاءه إلا من خلال موقعه وقيمته.

فى الوقت نفسه نجد من سجايا شخص ما سمات الخواء والبرود، بينما يقول عنه كل الناس إنه يتمتع بجمال فائق، وكذلك نشعر فى بعض الأحيان بالانجذاب إلى شخص ما ربما لا نعرفه مطلقا وقد تعجبنا تصرفاته وأسلوبه ونحزن إذا فارقناه، ومن ثم فإننا عندما نتذكره بعد عدة سنوات فإننا نشعر بشوق جارف تجاهه.

فى الوقت نفسه لا نستطيع أن نصل إلى الشفافية فى تعاملنا مع شخص آخر على الرغم من وضوح حقيقته فى ضوء أفعاله العديدة، حتى وإن كنا قد عاشرناه لسنوات طويلة، لذلك فإنه لا يوجد أدنى شك بوجود أسباب خلقية تبعث الشعور فى النفس لا يمكننا

إبرازها ودراستها من خلال ميزان المعرفة والحسابات، وكثيرا ما أوضح علم النفس تلك الأمور، إلا أن الكثير منها لا يزال غامضا وبعيدا كل البعد.

من هنا نؤمن أنه ليس من المبالغ فيه أن نقول إن هناك فجوة عميقة بلا حدود تسبح فيها الأرواح مع الله، فغالبا ما تسمو الروح إلى الله فى لحظات النشوة، كما يزهو فن الشعر المستمد من اللاوعى الطفولى يحل محله بين الحين والآخر، أما العلم فيقف فى الغالب بجموده وصلابته مهشما دائما، وفى كثير من الأمور يقف عاجزا عن عمل أى شيء.

دفعنى إلى تلك الملاحظات واقعة عايشت أحداثها فى إقطاعية رائد عسكرى متقاعد، حيث كانت رغبتى فى الترحال ما زالت فى أوجها، وكانت تدفع بى سريعا إلى بقعة ما من العالم أحيانا هنا وأحيانا هناك، وذلك لأننى كنت آمل أن أعايش وأكتشف أمرا الله أعلم به.

لقد تعرفت خلال رحلة على هذا الرائد، حيث كان يكرر دعوتى لزيارته فى وطنه، واعتبرت ذلك ضربا من المجاملة والتهذب كتلك التى يتبادلها المسافرون عادة فيما بينهم، ولم أكن – حقيقة – لأتابع هذا الأمر، لو لم تصلنى منه رسالة بعد مرور عامين من افتراقنا، حيث استفسر فيها بجدية عن أحوالى، وأضاف مجددا رغبته القديمة فى الحضور إليه يوما لكى أقضى لديه – كما يحلو لى – فصل صيف أو عامًا أو خمسة أعوام أو عشرة.

لقد بدا وكأنه قد عقد العزم أخيرا على التمسك بضيعة صغيرة مع عدم السماح لقدميه لأن تلمس ذرة تراب أخرى غير التى يملكها، وكأنه قد عثر فى تلك الأرض على ضالته التى كان يبحث عنها فى أنحاء العالم كافة دون جدوى.

ها نحن على أبواب الربيع، كان الفضول يكتنفنى لمعرفة غايته، ولم أكن أدرى على وجه التحديد إلى أية جهة ينبغى علىّ أن أشد رحالى، وقد قررت أن أتبع رغبته وألبى دعوته.

كانت ضيعته فى شرق المجر، وطوال يومين أخذت أعد الترتيبات، حيث كان على أن أجعل الرحلة أروع ما تكون، وفى اليوم الثالث ركبت حافلة البريد متجها صوب الشرق، حاملا فى مخيلتى صورا مسبقة للمروج والغابات، إذ لم أكن بعد قد رأيت تلك البقعة، وفى اليوم الثامن كنت قد وصلت إلى مبنى هيئة البريد، وكان هذا المبنى شامخا مقفرا كأنما يود أن يكون شاهدا على تاريخ المجر.

فى البداية بهرتنى عظمة المنظر، وأخذ الهواء يلاطفنى مداعبا بغير حدود، والصحراء تفوح بالنسمات، وعبق الوحدة يملأ الأنحاء، لكن ماذا جرى فى الغد وبعد الغد! لا شيء سوى تلك الحلقة الرتيبة التى تقبل فيها السماء الأرض، حيث اعتادت النفس على ذلك وبدأت العين تعلن استسلامها، وأصبحت تضيق ذرعا من ذلك العدم، كما لو أطبقت عليها تراكمات المادة.

ها هو الأمر يعود من جديد عندما تتمايل أشعة الشمس وتزهر الحشائش لتثير فى النفس أفكارا انعزالية ومختلفة، وتأتى على صفحة المرج أمواج من الذكريات القديمة، كانت تحتها صورة الرجل الـــذى قمت بالرحيل إليه.

تقبلت الأمر على الرحب، وفى ذلك المكان المقفر كان لـــدى الوقت الكافى لأسترجع فى ذاكرتى كل الخصال التى عرفتها عنـــه، وأبحث عنها فى ذاكرتى كى أبعث فيها الحياة من جديد.

لقد رأيته لأول مرة فى الجنوب الإيطـــالى بـــصحراء مقفـــرة رهيبة كتلك التى أرحل عبرها اليوم، وعلى الرغم من أنه كان يقارب الخمسين ربيعا فقد كان محط أنظار بعض العيون الجميلة، لم أر قط رجلا ذا كيان وطلعة أبهى من ذلك، حيث يتمتع فى ظـــاهره بـــشكل أرقى وأسمى.

ما أريد قوله هو أن ذلك كان نوعا من السمو الرقيـــق الـــذى يصاحب جميع تحركاته ببساطة وقوة، حتى أنه كثيرا ما كان يحظى بإعجاب الرجال، وسرت بين النساء بعض الأقوال : هل كـــان قبـــل ذلك بصدق رجلا يثير التساؤلات فى نفوس من حولـــه !، وتناقلـــت الألسنة قصص الانتصارات والبطولات التى أحرزها، والتى كانـــت غاية فى العظمة.

لكن يقال إن به عيبا يجعل منه الآن بحق شخصا غريبا وهو عدم اكتراثه بالآخرين، فرغم حب الآخرين له وإحساسه بذلك ينتهى موقفه بالتوديع والفراق والرحيل دون عودة، حتى هذا الجمال الأخاذ الذى كان يملأ الأرض، وبدلا من أن يكون هذا العيب سببا فى عزوف النساء عنه، فقد كان يجذب إليه المزيد من النساء، حيث كانت تسعى إليه إحدى قاطنات الجنوب ذات الجمال الأخاذ كلما سنحت الفرصة- فتلقى بحبها وسعادتها على صدره.

ومما يدعو للدهشة أيضا أن أحدا لم يكن يعلم من أى أرض هو، وأية مكانة يحتلها بين الناس، وعلى الرغم من قولهم أن علامات السمو تسرى بين شفتيه، فقد كانوا يقولون أيضا إن شيئا من الحزن يعلو جبينه، وكأنه ينم عن ماض مليء بالغموض، ولكن المثير للعجب أن أحدا لم يكن يعلم ذلك الماضى.

يبدو أنه قد لازمه سوء الحظ حيث تورط فى مهام رسمية حينما اضطر إلى إعدام أخيه رميًا بالرصاص، وربما أكثر من ذلك بكثير، مع أن الجميع عرف آنذاك أنه قد كان إلى حد بعيد مشغولا بالعلم والأبحاث.

لقد سمعت عنه الكثير، وعرفت فكره سريعا، كان ذلك عندما رأيته يسير فى طريق شديد الانحدار صوب أحجار بركان

"فيزوف"، ثم وهو يحاول الصعود إلى الفوهة الحديثة للبركان، وكذلك وهو يتابع بشغف حلقات الدخان الأزرق المنبعثة ببطء من الفوهة والشقوق، وعبرت إليه فوق تراكمات الحمم الصفراء، وتحدثت معه فكان يجيبني مسترسلا بترحاب.

وفي الحقيقة فقد كانت هناك صحراء مقفرة ومظلمة تحيط بنا في جو مخيف، كانت أشد غلظة من سماء الجنوب الرقيقة ذات الزرقة الداكنة والتي تعجز عن وصفها الكلمات، وكانت السماء تقف فوق رءوسنا مباشرة، وسحب الدخان المائلة تنجذب إليها بلطف.

في ذلك الحين أخذنا نتحدث طويلا، ثم رحلنا عن الجبل، كل في طريقه، وبعد برهة وأتتني الفرصة مرة أخرى فالتقيت به، وأخذنا نتزاور كثيرا، وكنا مترابطين حتى النهاية، إلى أن حل موعد رحيلي إلى الوطن.

لقد توصلت إلى أنه بريء نوعا ما من السمات المؤثرة التي ينم عنها مظهره، فمن داخله ينبعث غالبا شيء أساسي وجوهري، حيث يبدو الآن كما لو أنه قد سما بنفسه، على الرغم من أنه يقارب الخمسين عاما، تلك النفس التي لم تستطع أن تتحسس طريقها إلى الصواب.

بعد أن تحدثت إليه طويلا عرفت أن تلك الروح ربما تكون هي الأكثر توهجا وشاعرية، وهذا ما شعرت به في ذلك الحين، ومن

هنا جاءنى الإيحاء بأنها الأمر الطفولى الغامض البسيط المنعـزل، وفى الغالب أيضا هو الشيء الساذج بداخله.

أما هو فلم يشعر بتلك الهبات الإلهية، وكـان ينطـق أجمـل الكلمات بلا تكلف، والتى ربما لم أكن قد سمعتها قط طوال حياتى، حتى بعد أن سنحت لى الفرصة أن التقى بـشعراء وفنـانين، أو أن أقابل بمثل هذا الجمال الحسى الرفيع، الذى يمكن إثارته مـن خـلال الهمجية والغلظة، ووصولا إلى اللهفة والشوق، إلا فى داخله فقط، إن تلك الهبات غير المدركة كانت تجذب إليه كـل قلـوب الجـنس الآخر، ذلك لأن هذا الصفاء والإشراق كانا يندران فى الرجال فـى هذا السن.

جدير بالذكر أيضا أنه كان يعاملنى بلطف كما لو كنت صغيرا، كما أننى حقيقة لم أكن قد وضعت تلك الأمور فى الحسبان، ولم تتضح أمامى مثل تلك الأشياء إلا عندما تقدم بى العمر وأخذت على عـاتقى أن أجمع قصص حياته وسيرته.

لم أستطع أن أحدد إلى أى مدى تطورت علاقاته الأسـطورية بالنساء، حيث إنه لم يكن يتحدث فى تلك الأمور قط، كما أن الفرصة لم تتسع لذلك، ولم يمكنى كذلك التحقق من الحزن الذى يرتسم علـى جبينه ومحياه، كما لم يمكننى التحقق من حياته الأولى سوى أنه ربما قد قام برحلات متواصلة واستقر به المقام فى نابولى منـذ سـنوات

طويلة يجمع بقايا الحمم والأثريات، وقد حكى لى عن ممتلكاته فى المجر ودعانى إلى هناك مرارا كما ذكرت سابقا.

لقد عشنا معا فترة لا بأس بها، ثم انفصلنا أخيرا، حيث سرت فى طريقى بعيدا، وبالطبع كان هناك بعض الحنين والشوق، بعد ذلك كانت تدور بمخيلتى صور لبعض البلدان والشخصيات، ولم يخطر ببالى أننى سأكون يوما فى طريقى إلى هذا الرجل كما هى الحال عبر مروج وفيافى وغابات و صحارى المجر.

لقد كنت دائما أستحضر صورته فى ذاكرتى أكثر فأكثر، وأخذت أمعن الفكر، حتى أننى غالبا ما كنت أجد صعوبة فى التأكد من أننى قد أكون فى إيطاليا الآن، فقد كانت الأرض التى أرحل عنها شديدة الحرارة والصمت كما هى الحال هناك، وكانت موجة الشبورة الزرقاء تنعكس أمامى من بعيد كسراب المستنقعات الواسعة.

لم أسلك مباشرة الطريق المستقيم المؤدى إلى ضيعة الرائد، والموصوف فى الرسالة، ولكننى قمت بجولات بطول المكان وعرضه بغرض اكتشافه والتعرف عليه، والتى أوحت بالصورة نفسها والتى بدت الآن مقترنة بإيطاليا، وكان صديقى أكثر استقلالا وخصوصية.

كنت أعبر المئات من القنوات والجداول، وأبيت لدى الرعاة وكلابهم ذات الشعور المجعدة، وأشرب من الآبار المنتشرة

والمتفرقة عن بعضها بعضًا، والتى كانت تشق عنان السماء الساكنة من خلال أبراجها ذات الارتفاع المخيف، وكنت أجلس تحت بعض الأسقف شديدة الانحدار والمصنعة من البوص، حيث كان يستلقى حارس المكان.

ينطلق الحوذى(*) فوق المروج، ويلمع معطف راعى الجياد الأبيض اللون، وفكرت فى نفسى كيف يمكن أن يبدو شكل صديقى بتلك البقعة، فأنا لم أره إلا فى مجتمع حضرى، وفى الوقت الذى يتشابه فيه الناس كالحصى فى الجداول.

كان هناك الرجل المترف الرقيق فى مظهره، أما هنا فقد كان كل شيء مختلفًا، وغالبا ما كنت أفكر كيف سيكون حاله الآن حيث لا أرى أمامى سوى الغسق البعيد فى البرارى ذي الزرقة الدامية تتخلله آلاف النقاط البيضاء الصغيرة، وكذلك الأبقار فى المزارع، وكنت أجد الأرض تحت قدمى وقد اتشحت بالسواد حيث الكثير من النبات البرى، وبرغم التاريخ العتيق، فهناك أيضا الكثير من البداية والتأصيل.

أخذت أتجول فى المكان وأتعمق أكثر فأكثر شأنه وخصوصياته فبدا لى وكأنى قد سمعت صوت المطرقة التى بها يتشكل مستقبل ساكني هذا المكان، كل شيء فى المدينة ينم عن الزمن القادم، حيث ينقضى كل ما يتعلق بالماضى ويشرق كل ما يتعلق بالمستقبل.

(*) قائد العربة التى تجرها الجياد (المترجم).

رأيت أمامى القرى التى لا تعد ولا تحصى، ومزارع الكروم التى تزهو فخرا فوق الجبال، ورأيت المستنقعات وأعواد الغاب، وتقف خلفها الجبال الزرقاء الملساء، وأخيرا اعتقدت يوما، وبعد مرور شهر من الترحال والتجوال فى كل الأنحاء، أننى الآن قد اقتربت كثيرا من ضيعة صديقى.

بعد أن أدركنى التعب من هول ما رأيت، عقدت العزم على وضع نهاية لتلك الرحلة المضنية، وأن أغادر للتو هذا الرجل الذى يستضيفنى.

وأخذت أسير طوال فترة الظهيرة عبر أرض من الأحجار الملتهبة، وتقبع على اليسار قمم جبلية زرقاء شاهقة وقد ظننتها جبال "الكاربات"(١) وعلى اليمين توجد أرض جرداء مخضبة بتلك الحمرة، التى غالبا ما تبعث روح القفر، لكنّ الجانبين لا يلتقيان مطلقًا، وبينهما تجرى السهول الشاسعة.

عرجت على أحد الوديان الذى كان يشقه مجرى أحد الجداول، إذ بى أجد عن يمينى غابة من أشجار أبى فرو(٢)، وفى وسطها منزل أبيض اللون، وقد كانت الرمال المتراكمة تحجبها من قبل.

---

(١) إحدى سلاسل جبال الألب فى وسط وجنوب أوربا. (المترجم)

(٢) يطلق عليها أشجار ثمار القسطل تعريبا للاسم الألمانى ثمار الكستانيا. (المترجم)

ثلاثة أميال، ثلاثة أميال! هكذا كنت أسمع طوال فترة الظهيرة حينما كنت أسأل عن "أوفار" **Uwar** وهو اسم المكان الذى كان يطلق على قصر الرائد، وحيث إننى كنت قد عرفت الأميال المجرية من خلال تجربتى، فقد أدركت أن عليّ أن أسير خمسة أضعاف تلك المسافة، وتمنيت بلهفة أن أبلغ المنزل "أوفار".

كانت هناك حقول قريبة تواجه سدا طينيا، أبصرت عليها بعض الأشخاص الذين سعيت للاستفسار منهم، حيث شققت طريقى وسط أحد جوانب غابة أشجار أبى فرو، وأدركت من خلال إمعانى النظر فى الوجوه الكثيرة التى التقيت بها وتعلمت منها أيضا أن المنزل ربما لا يقع فى الغابة، وربما يكون خلف أحد السهول المجاورة للغابة، وأنه لا بد وأن يكون منزلا ضخما.

ورأيت شيئا مبهم الملامح كان قد ظهر بغتة فوق الحقول التى يعمل بها الناس، وكان العاملون بالحقل قد اجتمعوا حول ذلك الشيء بعد أن أتى إليهم وكأنهم اجتمعوا حول شخص ما، ولم يكن ذلك الشخص يشبه الرائد بأى شكل من الأشكال.

اتجهت إلى الأرض المنحدرة ببطء، والتى كانت تتباعد وتتباعد كما أظن حتى وصلت إلى حيث كانت حمرة الليل المتوهجة قد لفت حقول الذرة التى يسودها الظلام، وجماعات الخدم الملتحين، وكذلك الرجل الذى يمتطى الجواد.

لم يكن ذلك سوى امرأة في الأربعين من عمرها، كانت ترتدى السروال الفضفاض المثير للدهشة والذى يلائم المكان، وتمتطى جوادا كما لو كانت رجلا، وكان الخدم قد تفرقوا حيث وقفت بمفردها تقريبا وسط الأرض، فقلت لها بلغة ألمانية وقد أسندت عصاى التى ترافقنى فى ترحالى أسفل حقيبة ظهرى الصغيرة، ورفعت نظرى إليها وأشعة الليل الحمراء الفتية تتراقص على وجهى:

"طاب مساؤك يا أماه".

فأردفت بنفس اللغة: "طاب مساؤك".

"إن لى رجاء، أو ليس هذا المنزل يدعى أوفار؟".

"ذلك المنزل لا يدعى أوفار، هل تسعى نحو أوفار؟".

"بالطبع، فعلى أن أزور صديق سفرى وترحالى الرائد الذى سبق أن دعانى إلى هناك".

"حسنا، فلتسر فى أعقاب جوادى".

بتلك الكلمات بدأت تتحرك بجوادها الذى أخذت تمتطيه بهوادة حتى أتمكن من اللحاق بها، وصعدت إلى منحدر وسط مجموعات سيقان الذرة الخضراء فارعة الطول، تبعتها سائرا وقد سنحت لى الفرصة أن أرى كل ما يحيط بى، وكانت الأسباب التى تدعونى إلى الدهشة فى ازدياد مطرد، وعندما وصلنا إلى أعلى الجبال انفتح

خلفنا المنحدر بشكل ملحوظ ولأرى غابة ضخمة كحديقة خضراء تمتد بداية من القصر وحتى سفوح الجبال القابعة خلفه، رأيت الطرق المزدانة بالأشجار، والممتدة فى مواجهة الحقول، وملحقات القصر تقف واحدة تلو الأخرى فى بساطة وفخامة. لم أر فى حياتى مثل أوراق الذرة الفارعة الغضة والنضرة، التى لا يوجد بين سيقانها ثمة نبتة واحدة من الحشائش، وأثار جبل الكروم الذى وصلنا إليه للتو وهو ما يذكرنى بما عشته على ضفاف نهر الراين[٣]، فهناك فقط لم أجد الخشونة والغلظة على أوراق الكروم كما لم أجدها هنا، كان السهل الذى يفصل غابة أبى فرو عن القصر غاية فى الجمال والرقة، كما لو أنه قد اكتسى بالمخمل، وكانت تخترقه طرق مُسيّجة تتجول فيها أبقار المكان الشهباء الناعمة الرشيقة مثل الأيائل والغزلان.

لقد انفصل كل شيء عن الحقول الصخرية التى كنت أتجول فيها اليوم، والتى جست خلالها فى نسيم المساء، ونحيتها جانبا بقوة تحت خيوط الأشعة الحمراء، حتى استقبل نضرة الخضرة المنعشة وبهاءها.

فى تلك الأثناء كنا قد وصلنا إلى إحدى تلك المنازل الصغيرة البيضاء، التى لاحظت انتشار العديد منها وسط خضرة مزارع

---

(٣) أحد أهم الأنهار الأوربية وينبع من جبال الألب جنوب غرب أوربا بداية من سويسرا ويتجه ناحية الشمال ويصب فى بحر الشمال. (المترجم)

الكروم، قالت السيدة لصبى يرتدى سترة من الفراء السميك، برغم حرارة ليالى شهر يونية، وكان يعبث أمام باب المنزل: "ميلوش **Milosch**، إن السيد يريد الذهاب اليوم إلى "أوفار"، خذ دابتين من دواب الحقل فأعطه واحدة، وسر معه حتى موقع المشنقة".

أجاب الصبى وقد هب واقفا : "حسنا".

"الآن اذهب معه وسوف يقوم بخدمة توصيلكم على أكمل وجه".

هكذا قالت السيدة ثم عادت بجوادها متخذة طريق العودة الذى جاءت منه معى. لقد اعتبرتها ممن يؤدون هذه الخدمات وأردت أن أقدم قطعة فضية من النقود نظير خدمتها التى أدتها لى، وطلبت منها إعطاء الخادم الذى أحضرته لى، إلا أنها ضحكت فكشفت عن صف من الأسنان رائعة الجمال، ثم دلفت ببطء من على جبل الكروم(٤) ممتطية جوادها، وعلى الفور سمعنا وقع سنابك جوادها المتلاحقة، وكأنها قد طارت فوق السهل.

أعدت نقودى ثانية، واستدرت نحو "ميلوش" الذى كان قد وضع مؤقتا قبعة عريضة بالإضافة إلى سترة الفراء، ثم تقدمنى خلال طريق وسط أشجار الكروم، وصعدنا إلى منحدر سهلى فوجدنا

---

(٤) يقصد الكاتب بهذا التعبير حقول العنب لأن معظم زراعات العنب فى أوربا تتم على سفوح الجبال المواجهة للشمس. (المترجم)

أمامنا أحد ملحقات القصر، أخرج منها اثنين من الجياد كتلـك التـى ترعى فى مروج تلك البقعة.

قام "ميلوش" بتسريج جوادى، أما جواده فقد امتطاه كما هـو، وأخذنا نسير فى الغسق باتجاه سماء الشرق المظلمة.

ياله من منظر عجيب، الرحالة الألمانى ومعه حقيبـة الظهـر الصغيرة والعصا المجدولة والقبعة على صـهوة الجـواد، وبجانبـه المجرى النحيف ذو الشارب والذى يرتدى قبعة مستديرة وسترة من الفراء السميك، وسروالا أبيض فضفاضا، الاثنان يمتطيان جواديهمـا فى الليل عبر الصحراء.

فى الحقيقة كانت صحراء، نزلنا فيها على الجانب الآخر مـن جبال الكروم، وكان الوجود بها شيئا خرافيا، كانت الأرض الحجريـة نفسها مرة أخرى، حتى ظننت أننا نرجع فى الطريق نفسه الذى جئنـا منه، لو لم أكن قد عرفت اللون الأحمر الملبد، الذى ما زال متوهجـا خلفى فى السماء، حيث إننا نسير بالفعل قرابة الفجر.

سألت "ميلوش": "كم تبقى للوصول إلى أوفار".

فأجاب: "تبقى ميل ونصف الميل".

أذعنت للإجابة، وأخذت أسير خلفه بكـل طـاقتى، وعبرنـا بجيادنا فوق الأحجار الكثيرة الرمادية نفسها التى لا تحصى، والتـى أحصيتها اليوم بالآلاف طوال النهار، كانت تنزلق خلفى على الأرض

باعثة شعاعًا كاذبًا من الضوء، وحيث إننا نسير فوق مستنقع جـــاف شديد الجفاف، فلم أكن أسمع ثمة وقعًا لحوافر جيادنا، بخلاف مـــا إذا اصطدمت حدوات الحديد مصادفة بأحـــد الأحجـــار، التـــى تعـــرف الحيوانات جيدا كيف تتفاداها، والتى اعتادت أيضا على مثـــل تلـــك الطرق.

كانت الأرض مستوية دائما بخلاف ثلاثة منخفضات، اجتزناها صعودا وهبوطا، وقد وضع بها وابل من الحصى الخشن.

وسألت رفيقى: "من الذى يملك تلك الضيعة التى مررنا بها؟".

فأجاب: "ماروشيلي" **Marosheli**.

لم أعرف ما إذا كان ذلك هو اسم المالك، أو إذا كنت قد فهمت الفهم الصحيح، فقد تكلم أمامى بسرعة وهو يمتطى الجواد، وجعلـــت الحركة التحدث والسمع شيئا عسيرا.

وأخيرا ظهرت قطعة صغيرة من القمر مخضبة بلون الدماء، وعلى ضوئها الخافت ظهرت هياكل سقالة المشنقة الرشـــيقة فـــوق الأرض، واعتبرتها نهاية المطاف لمصاحبتى.

قال "ميلوش": "ها هى المشنقة فى الأسفل حيث البريق ينساب جدولا وبجانبه تستقر كتلة سوداء تطل عليه، وهى شجرة بلوط كـــان يتم عليها شنق المجرمين، وهذا لم يعد يحـــدث الآن، ومـــن شـــجرة

البلوط ينطلق طريق ممهد، تحده من الجانبين أشجار صغيرة. عليك أن تستمر فى هذا الطريق ما لا يقل عن الساعة، وبعدها قم بجذب صارية الأجراس عند القضبان الحديدية، وحذار أن تدخل حتى لو كانت مفتوحة، وذلك بسبب الكلاب، عليك فقط أن تجذب صارية الأجراس عند القضبان الحديدية، والآن سر على قدميك واحكم الرداء جيدا حتى لا تصاب بالحمى".

ترجلت عن الجواد، وأعطيته قطعة أخرى من النقود على الرغم من أن ذلك لم يكن مستحبا لدى السيدة التى أوصلتنى، أخذ "ميلوش" قطعة النقود ووضعها فى الفراء، ثم أمسك بلجام جوادى وتراجع إلى الوراء، وانطلق مسرعا قبل أن أبلغه رغبتى ببعث شكرى للسيد صاحب الجياد على السماح لى باقتياد أحدها فى الليل بحرية كاملة.

لقد اختفى من المكان تماما، وعندما نظرت أمامى رأيت عمودين، عليهما قرمة خشبية عريضة، كانت ترتفع فى ضوء القمر الأصفر، وعليها شيء يشبه رأسا كانت تبدو فى الحقيقة كتعلية لا طائل منها، وواصلت السير، كانت الحشائش تهمس من خلفى، وشيء ما يتحرك أسفل المشنقة، لم يدل "ميلوش" بمعلومات أخرى، وكأنه لم يأت إلى هنا من قبل، حتى وصلت بسرعة إلى شجرة البلوط الميتة.

كان الجدول يلمع محدثا دوائر حول عيدان البوص كالحية النافقة، وكانت الشجرة تستقر بجانبه، وبدأت أدور حولها، وعلى الجانب الآخر كان هناك طريق مستقيم، وضوء القمر ينير مسالكه وكان الطريق مليئا بالمنحنيات والحفر، وأشجار الحور تحده من الجانبين، وراقني الأمر كثيرا أن أسمع وقع قدميي مرة أخرى، مثلما كان يحدث على الطرقات فى وطننا.

واصلت سيرى بخطوات متثاقلة، والقمر يرتفع أكثر فأكثر، إلى أن استقر بوضوح في سماء الصيف الدافئة، وكانت الأرض تمتد تحته كالخرقة البالية، وأخيرا ــ وبعد مرور ساعة كاملة ــ ارتفعت أمامي كتل سوداء تشبه الغابة أو الحديقة، وبعد برهة قصيرة ظهر طريق يؤدى إلى القضبان الحديدية المستقرة فوق سور ممتد إلى خارج الغابة، وخلفه قمم شاهقة شامخة برءوسها فى سكون مميت وسط عبق الليل الفضى، وفوق تلك القضبان يتدلى مقبض الأجراس، فقمت بجذبه، وإذ بصوت ينبعث من الداخل.

بعدها بقليل لم يصدر صوت نباح، بل نبرات من أنفاس عميقة صارمة متواثبة لكلب نبيل الأصل، وقد وثب من الداخل فوق القضبان الحديدية أكبر وأجمل كلب رأيته فى حياتى، مستندا على قدميه الخلفيتين، بينما القدمان الأماميان متشبثتان بالقضبان، كان مثبتا بصره علىّ دون أن ينبح، مثلما اعتادت هذه الحيوانات على الأسلوب الجاد.

وعلى الفور جاء كلبان صغيران بتجهم وتحفز، من نفس فصيلة الكلاب فطساء الأنف، وأخذوا جميعا يرمقوننى بنظرات ثابتة، بعد برهة سمعت وقع أقدام شخص قادم، وظهر رجل فى سترة من الفراء المجعد وسألنى عن مرادى، فتحدثت إليه عما إذا كنت الآن فى "أوفار"، وأخبرته باسمى، ويبدو أنه كان يعلم بالأمر حيث بدأ على الفور فى إسكات الكلاب ببعض الكلمات المجرية، ثم فتح القضبان.

قال الرجل وقد أخذنا نواصل السير: "لقد تلقى السيد رسائل منكم وهو ينتظركم منذ زمن".

أجبت: "نعم، فقد أعربت له فى رسائلى عن رغبتى فى رؤية وطنكم".

قال لى: "وها أنتم قد رأيتموه".

فأجبت: "بالطبع، هل السيد الرائد ما زال مستيقظا".

- "إنه ليس هنا، بل فى اجتماع، وسوف يحضر فى الصباح الباكر، وقد أمر بإعداد ثلاث حجرات لكم، وأوصى باستقبالكم فور حضوركم فى أثناء غيابه".

- "حسنا".

كانت هذه الكلمات الوحيدة التى تبادلناها فى ذلك الطريق الطويل الذى عبرناه خلال غابة أراها موحشة قبل أن نعبر خلال

حديقة، كانت أشجار "التنوب"(٥) مشتدة العود تجاه الـسماء، وتنتـشر حولها فروع أشجار البلوط.

أخذ الكلب الأكبر يسير بحذائنا فى هدوء بينما الآخران يعبثان بملابسى بين الحين والآخر، وبعد أن اجتزنـا مجموعـة الأشـجار، وصلنا إلى مرتفع خال من الأشجار، واستطعت في ذلك الوقـت أن أرى القصر شامخاً إلى السماء، كان بناء مربع الأركان، وكان ذلـك المرتفع يؤدى إلى درج حجرى عريض شاهق، ينيره ضـوء القمـر الجميل، ووراء ذلك الدرج ساحة مستوية إلى حد مـا، ثـم قـضبان حديدية ضخمة تعمل بمثابة بوابة المنزل، وبمجرد أن وصلنا إلى تلك القضبان تفوه رفيقى ببعض الكلمات للكلاب، فكـروا عائـدين إلـى الحديقة، ثم أغلق القضبان وتقدمنى إلى داخل المنزل.

كان الضوء ما زال ينير فوق الدرج موضحًا بعض الـصور الحجرية المليئة بالأحذية الضخمة والملابس الجرارة، يمكن أن تكون لملوك مجريين، وكان فى استقبالنا بالطابق الأول ممر طويل مفروش بالحصر المشغولة من أعواد البوص، سرنا بطوله ثم صعدنا درجـا آخر إلى أعلى حيث كان هناك ممر مشابه.

---

(٥) أشجار شديدة الخضرة وإبَريَّة الأوراق بهيجة اللون وتسمى بأشجار أعياد الميلاد، والتى تزينها الأسرة الألمانية فى هذه المناسبة من كل عام. (المترجم)

أخبرنى رفيقى وهو يفتح مصراعى الباب أن تلك هى حجرتى، ودخلنا إليها، وبعد أن أشعل العديد من الشموع فى كل حجرة تمنى لى ليلة هادئة، وانصرف فى طريقه.

وبعدَ برهة أحضر لى شخص آخر خبزًا ونبيذًا ولحما مشويا باردا، وتمنى لى ليلة هادئة مثلما فعل سابقه، ومن خلال الأثاث الفاخر فى الحجرات، أدركت أننى سأبيت بمفردى، فاتجهت صوب الأبواب وأوصدتها مختليا بنفسى.

بدأت أتناول طعامى وأنا أتفحص المكان الذى سوف أسكن فيه، كانت الغرفة الأولى التى وضع فيها الطعام فوق منضدة كبيرة فسيحة الأركان، وكانت الشموع تشتعل بشدة مضيئة معها كل شيء.

أما عن الأثاث والمفروشات فقد كانت شيئا مختلفا عما نستخدمه فى بلدنا، وفى وسط الحجرة كانت توجد منضدة طويلة، أخذت أتناول طعامى على أحد أطرافها، ووضعت حول المنضدة بعض الأرائك المصنوعة من خشب البلوط، والتى تبدو – فى الحقيقة– غير مخصصة للاستخدام المنزلى، بل كانت مخصصة للاجتماعات، وبخلاف ذلك فقد تجد – بين الحين والآخر – مقعدا هنا أو هناك.

أما الجدران فقد كانت مزينة بأسلحة من عصور مختلفة، كانت تبدو لو أنها خاصة بالمجريين القدماء، وأسفل تلك الأسلحة كان

هناك الكثير من الأقواس والسهام، وكان على الجدران أيضا – إلى جانب الأسلحة – بعض الملابس المجرية التى ترجع إلى العصور القديمة، وكانت تلك الملابس فضفاضة منسوجة من الحرير، وقد تنسب إلى "الأتراك" أو "التارتاريين"(٦).

بعد أن فرغت من تناول عشائى اتجهت إلى الغرفتين المجاورتين اللتين تليان ذلك البهو، كانت مساحتهما أصغر، ومن الوهلة الأولى لاحظت بمجرد دخولى أنهما مؤثثتان بشكل أكثر راحة من البهو، أرائك، طاولات، مناضد، أدوات للغسيل، أدوات كتابية، وكل شيء يمكن أن يتمناه رحالة وحيد فى مسكنه، كانت هناك – كذلك – كتب موضوعة فوق المنضدة الصغيرة المجاورة للفراش، جميعها بالألمانية.

كان هناك سرير فى كل حجرة، وكان على كل واحد منها قطعة من قماش القطيفة الوثير بدلا من الغطاء تسمى "البوندا"، وهى – فى الغالب – عبارة عن معطف من الفراء يقع جانبه الخشن نحو الداخل، أما الجانب الأبيض الناعم فوجهه نحو الخارج، وبينهما تلك المنطقة الكثيرة الألوان والمطرزة بالعديد من النقوش الجلدية.

قبل أن أخلد للنوم، ذهبت نحو النافذة لأستطلع الأمور بالخارج كعادتى فى الأماكن الغريبة، لم يكن هناك الكثير لرؤيته، ولكنى

---

(٦) نسبة إلى "تارتاروس"، وهو مصطلح يدل على العالم السفلى فى الأساطير اليونانية.

أيقنت – فى ضوء القمر – أن تلك الأرض ليست ألمانية، فى الأسفل كانت الغابة أو الحديقة تمتد فى الصحراء كغطاء البوندا الكبير، لم أكن أعرف هل كانت تلك هى المناطق الداخلية من المكان أم هى طبقات من الضباب.

بعد أن تجولت ببصرى برهة فوق تلك الأشياء، تحولت إلى الخلف مرة أخرى وأغلقت النافذة، ثم خلعت ملابسى، وذهبت إلى الفراش الأقل ترفا واستلقيت فوقه، وبمجرد أن جذبت فراء "البوندا" الوثير فوق أعضائى المنهكة وأغمضت عينى فإذا بى أستسلم للأفكار من جديد : ترى ما الشيء الرائع أو البغيض الذى يمكن رؤيته فى هذا المسكن.

وبدأ النوم يغالبنى والسكون يعم الأنحاء، لطالما تمنيت بشوق طوال حياتى أن أعيش فى جو مماثل.

الفصل الثانى

منزل فى البرارى

لم أعرف كم من الوقت بقيت نائما، إلا أننى على يقين من أن نومى لم يكن مستقرا أو جيدا. لابد أن السبب وراء ذلك هو التعب المضنى. وطوال الليل كنت أطوف حول بركان "فيزوف"، ورأيت الرائد جالسا فى ملابس الترحال فى منطقة "بومبي"(٧)، ثم رأيته واقفا بالملابس الرسمية بين بقايا حمم البركان، ثم وهو يتفحص الأحجار.

وتخلل حلمي صهيل خيول ونباح كلاب، ثم غرقت فى نوم عميق، وما إن استيقظت، حتى وجدت فى غرفتى يوما صحوا، فاتجهت ببصرى خارجا نحو القاعة، حيث الأسلحة والملابس المعلقة التى تغطيها أشعة الشمس.

فى الأسفل كانت الحديقة المظلمة تعج بأصوات الطيور، وبمجرد أن نهضت واتجهت صوب إحدى النوافذ، حتى كانت المروج بالخارج تبرق من خلال شبكة نسجتها أشعة الشمس.

---

(٧) هى مدينة قديمة جدًا تقع على مقربة من جبل "فيزوف"، ودمرت بسبب إحدى ثورات هذا البركان. (المترجم)

لم أكن قد فرغت بعد من ارتداء ملابسى، وإذا بأحـد يطـرق باب حجرتى، ففتحت حيث دخل صديق سفرى.

فى الأيام السابقة كان الفضول يملأنى، لأعرف كيف يمكن أن يبدو! فلم يكن مختلفا عما يمكن أن يبدو عليه، حيث كـان مظهـره ملائما للبيئة المحيطة. لم أكن أراه بغير هذه الصورة.

كانت شواربه كالعادة تعلو شفته العليا، وكانت تجعـل عينيـه أكثر لمعانا، ورأسه مغطاة بقبعة عريضة مستديرة، ومن خلفه ينسدل السروال الأبيض الفضفاض، شيء طبيعى أن يبدو هكذا.

فجأة، لم أستطع أن أتذكر كيف كان يبدو بالسترة الرسمية، فقد كانت حلته تلك مبهرة للغاية، حتى أننى وجـدت حـذائى الألمـانى المعفر بالتراب، والذى عفى عليه الدهر، المستقر فوق أريكة أسـفل بعض الملابس الحريرية الخاصة ببعض الترتاريين فى حالة يرثـى لها، وقد كانت سترته أقصر من تلك المعهودة فى ألمانيا، لكنها كانت ملائمة للشكل العام..

ظهر صديقى، وقد بدت عليه علامات الكبر، فامتزج شـعره باللون الرمادى، وامتلأ وجهه بتلك الخطوط الرقيقة القـصيرة التـى تقف دليلا على ازدياد سنوات العمر لدى علية القوم الذين يحتفظـون بحيويتهم طويلا، ومع ذلك كان يبدو لى رقيقا ووسيما كعادته.

أخذنى بترحاب حار خارج من أعماق القلب، وبعد أن تحـــدثنا نصف الساعة، بدأ كل منا ينجذب نحو الآخر كسابق عهـــدنا، وبـــدأ الأمر كما لو أننا لم نفترق قط منذ رحلتنا إلى إيطاليا.

ارتديت ملابسى، ولاحظت أن هناك حقيبة سوف يـــأتى بهـــا تحوى باقى حاجياتى الأخرى، ثم اقترح – إن كانت لى رغبـــة – أن أرتدى طوال فترة إقامتى ملابس مجرية، وافقت على الفور وسرعان ما أحضرت لى الأشياء الضرورية لإقامتى، ولاحظت أنه لابـــد وأن يهتم بالتنويع والتغيير فى الأيام المقبلة.

نزلنا إلى البهو حيث الخدم ذوو الملابس المشابهة لملابسنا والذين كانوا يثبتون أنظارهم علينا فى سرور. كانت شواربهم داكنة وحـــواجبهم كثة، ثم أعدوا لنا الجياد لنزهة الصباح. كل تلك الأحداث أدخلت البهجـــة إلى قلبى وأيقظت أعمق الأحاسيس.

امتطينا الجياد طائفين حول ممتلكات الرائد، يصحبنا فى تلـــك الأثناء الكلب الكبير الهادئ. أرانى كل شيء، وكان يلقى بين الحـــين والآخر بعض الأوامر وكلمات الثناء. كانت الحديقة التى تجولنا فيها فى البداية عبارة عن غابة مشذبة محاطة بالعناية والرعاية تتخللهـــا بعض الطرقات.

بمجرد أن خرجنا إلى الحقول كانت تموج بالخـــضرة الداكنـــة التى لم أجد لها مثيلا سوى فى إنجلترا، وقد كانت هناك تبـــدو أكثـــر رقة ونضارة فى حين تبدو هنا أكثر قوة وتتخللها أشعة الشمس.

سرنا بجيادنا خلف الحديقة متجهين إلى أعلى، وعلى قمة ذلك التل الذى يواجه الحديقة كانت تمتـد أشـجار الكـروم ذات الأوراق الداكنة العريضة التى تملأ المكان. كانت النباتات تحتل رقعة عريضة حيث تنتشر أشجار الخوخ فى كل النواحى، وفى الأماكن المحيطـة تطل الصوبات الزجاجية مثل نقاط بيضاء لامعة، كما فـى ضـيعة "ماروشيلي"، وحين أتينا إلى المرج رأينا أبقاره فى قطيع ضخم ليست له نهاية.

بعد ساعة من امتطاء الجياد دخلنـا إلـى حظـائر الخيـول والماشية، وعند المرج أرانى منطقة سوداء كانـت تقطـع شـحوب الصحراء المترامى فى الغرب، ثم قال: تلـك هـى جبـال كـروم "ماروشيلي" حيث أخذت الجياد بالأمس.

أخذنا طريق العودة من جهة أخرى حيث أرانـى الحـدائق ومزارع الفاكهة، والصوبات الزجاجية الخاصة به، وقبل أن نأتى إليها تجولنا فوق رقعة صغيرة جدا يعمل بها أناس كثيرون، وقـد أجاب ردا على سؤالى أن هؤلاء أجراء وفقراء يعملون لديه مقابل أجر حيث كانوا يجففون بعض المستنقعات ويعبدون أحد الطرق.

حين وصلنا إلى المنزل عند منتصف النهار بـدأنا فـى تنـاول الطعام مع الخدم رجالاً ونساءً داخل ما يشبه القاعة، أو بالأحرى تحـت مظلة هائلة تستقر بداخلها شجرة جوز عملاقـة، وعنـد مـدخل البئـر الخشبى كان الغجر يعزفون موسيقاهم وهم يتجولون.

كان يجلس على المائدة شخص غريب، كان شابا في مقتبل العمر بهرني بوسامته غير المعهودة، كان قد أحضر رسائل من المناطق المجاورة وبعد تناول الطعام امتطى جواده مواصلا سيره، وقد كان الرائد يعامله بمنتهى الرقة والاحترام.

قضينا وقت القيلولة القائظ فى الغرفة الرطبة، وفى المساء أرانى صديقى حمرة الليل فوق المرج، وأخذنا جيادنا منطلقين فى طريقنا بعد أن حذرنى – كعادته – من الهواء الساخن فى المنطقة، ونصحنى بأن أحكم الرداء جيدا حول جسدى، رغم أنه لم يفعل ذلك رغم استمرار الهواء الساخن.

بعد أن خرجنا، ظللنا منتظرين فى المكان الذى حدده، حتى غابت الشمس عن الأبصار، وفى الحقيقة فقد كان المنظر رائعا للغاية، حيث كانت قبة السماء الهائلة القاتمة تعلو رقعة المرج السوداء وتملأ الأبصار وتجعل كل ما فى الأرض مظلما وقاتما.

وكانت تقف سيقان عيدان حشائش المرج مثل كتلة خشبية ضد ذلك الوهج، وبين الحين والآخر يمر حيوان مثل مارد أسود فوق الأرض الذهبية، وتبدو شجيرات العرعر والبرقوق الصغيرة كالكنائس والقصور البعيدة. وبعد لحظات قليلة بدأت زرقة الليل الباردة فى الظهور ناحية الشرق، واخترق لمعان قبة السماء ضباب قاتم كثيف.

لقد حدث هذا المنظر بصورة رائعة فى أيام شهر يونية حيث كانت تشرق الشمس طويلا.

رجعنا إلى المنزل، وتناولنا العشاء، ثم تحدثنا معا لفترة طويلة، ثم دخلت حجرة نومى، ووقفت عند النافذة وقد حل منتصف الليل. كان هناك فى الغرب ضوء أصفر خافت وممتقع، بينما يبرق قوس الهلال الأحمر فى سماء الشرق الزرقاء.

أخذت أفكر طوال تلك الليلة عما إذا كانت الفرصة ستأتى غدا أو بعد غد، أو حتى فى الأيام القادمة، حين أسأل الرائد عن الهدف الذى كتب لى عنه، والذى وجده أخيرا، ويربطه دائمًا وأبدًا بالوطن.

فى اليوم التالى أيقظنى قبل بزوغ الشمس، وسألنى أن كنت سأقضى اليوم بمفردى، أو أرغب فى مصاحبته. كانت لى حرية الاختيار بين أمرين دائما. فإنْ كنت أرغب فى الاشتراك فى الأمور المنزلية فعلى فى ذلك اليوم – الذى أنوى فيه فعل ذلك – أن أستيقظ عند دق جرس البهو الذى يدق كل صباح، وأن أكون على المائدة الجماعية الصباحية. أما إذا كانت لى يوما ما خطط مستقلة، فإن خدمه لديهم الأوامر بإمدادى بالخيول أو مرافقتى، أو أى شيء من الأشياء الضرورية الأخرى فى حالة عدم وجوده.

كان رحب الصدر دائما، فحين أخبره مسبقا بتلك الأمور – وبالأخص حين تكون بعيدة عن نطاق المنزل – كان يمدنى بالنصيحة

حول الطرق الجانبية والمصاعب، وحتى المخاطر الصغيرة التي يمكن أن أواجهها. كنت ممتنا له على سعة صدره، وأعربت له عن رغبتي في اقتسام الوقت معه اليوم وغدا، ومهما طال الزمن.

نهضت من مكاني حيث ارتديت ملابسي واتجهت صوب مائدة الصباح تحت المظلة. كان الجميع قد فرغوا تقريبا من تناول طعامهم، ثم افترقوا إلى أعمالهم المختلفة، أما الرائد فقد انتظرني حتى فرغت من تناول إفطاري، وبعد أن أخرجت الخيول المسرجة تبعته إلى حيث سيذهب دون أن أسأل ماذا يريد أن يفعل.

لم نقم اليوم بجولة عامة لكي يرني أملاكه وأعماله ثانية، بل أعرب لي عن رغبته في عمل ما يتطلبه هذا اليوم، وأن أراقب ما يحدث إذا لم يكن ذلك مملا بالنسبة لي.

أتينا إلى أرض منزرعة مترامية الأطراف، عليها أكوام من التبن المجفف، كان الجواد المجرى الجميل الذي يمتطيه الرائد يحمله متراقصا فوق الأعشاب الخضراء المخضبة والرائعة النضرة، ونزل من على ظهر دابته، بينما كان أحد الخدم ممسكا بها، وألقى نظرة على أكوام التبن الكثيرة.

لاحظت من منظر الخادم أن ذلك الأمر يحدث دائما بعد الظهيرة. وفي أثناء تقضيب الحقل أمر الرائد بشق العديد من الترع

والقنوات حتى تنساب الماء داخلها، كما أمر بحفر مناطق أخرى كي يتجمع بها الماء.

ثم اتخذ الطريق نحو المرج خلال الصوبات الزراعية التي كانت مختلفة عن ذى قبل، كانت مستقرة بالقرب من المنزل وعلى مكان مناسب، حيث يوجد منحدر أرضى تبرز قمته بمواجهة الشمس الوليدة. بجانب تلك الصوبات كانت هناك حظيرة خيول صغيرة ونظيفة، يقوم فيها الرائد – فى أثناء وجوده – أو من معه بربط جيادهم.

لم يكن ذلك بالأمر العجيب، إن لم يتحتم علينا البقاء هنا طويلا، فحين تكون هناك زيارة لاستطلاع أحوال أحواض النباتات فإن الأمر يستغرق ساعات طويلة.

قمنا بربط جيادنا مُسَّرجة فى حظيرة الخيول، ثم انطلق هو أولا للاطمئنان على النباتات البعيدة التى أعدت للإرسال. وذهب بعد ذلك إلى غرفة البستانى حيث قضى وقتا طويلا أمام بعض المخطوطات.

فى أثناء ذاك بدأت أستكشف الأشياء من حولى والتى تفاوت إدراكى لها على قدر ما استطاع رجل مرتحل بلا انقطاع أن يفهم حين يجد أمامه تلك الصوبات الزجاجية التى لا تحصى، وبعد أن تصفحت المخطوطات والصور الخاصة بتلك الناحية من مكتبه، اكتشفت مدى ضعف معرفتى بالأمر.

قال لي الرائد في وقت لاحق: من يرد جني ثمار تلك الأمـــور التي تتزايد من المئات إلى الآلاف، عليـــه أن يتناولهـــا بعمـــق مـــن أساسياتها، كما ينبغي أن يزداد عدد القائمين على دراسة تلك الأشياء.

في أثناء خروجه من حجرة البستاني، نظر لبرهة إلى النـــساء اللاتي تقمن بتنظيف زهور الكاميليا. كان ذلك النبات آنـــذاك نـــادرا ومرتفع الثمن، وقام بعد ذلك بفحص النباتات التي سبق تنظيفها، كما أبدى ملاحظاته.

ذهبنا إلى الأحواض الرملية الكثيرة في الصوبات الزجاجية، كانت نظيفة ناصعة البياض حيث تقف البراعم الصغيرة، ثم اتجهنـــا نحو الزهور والنباتات التي كان يرعاهـــا بنفـــسه، وعنـــد مخـــارج الأحواض الأمامية كانت تقف جيادنا حيث كان شـــاب بـــستاني قـــد أعدها للرحيل.

لقد كان العمل هنا من أجل نثر وتقليب أنواع التربة التي كانت تجلب بواسطة الحمير المحملة بالسلال من كل حدب وصوب، ويـــتم – في الغالب – جلبها من الغابات الصنوبرية البعيدة طـــوال العـــام، وحين تحرق التربة فإن هناك أماكن خاصة بذلك، وبالقرب منا كانت أخشاب البلوط متراصة فوق بعضها حيث تستخدم للتدفئة في الشتاء.

وكما لاحظت بالأمس فوق المـــرج القريـــب مـــن أحـــواض النباتات، حيث امتطينا جيادنا في نزهة مماثلة، وحملنا جيادنا الرشيقة

على العدو السريع بعيدا جدا حتى تلك المنطقة المشبعة بنسيم الصباح والمشابهة لما سبقها، إلى أن رأينا القصر والحديقة من بعيد كبقعة داكنة، ونلتقى وجهًا لوجه مع رعاته.

كانت هناك بعض العيدان النحيفة للغاية يمكن بالكاد أن ندعوها حصونًا وهى مبنية غالبا على شكل كوخ، يمكن رؤيته أو العثور عليه بعناء وسط الصحراء، وأسفل تلك العيدان كان يلمع شيء كالنار بواسطة الفروع الصلبة أو جذوع شجيرات العرعر والبرقوق أو الشجيرات المكسرة الأخرى.

كان الرعاة الباقون فى الحقول حتى الساعة الحادية عشرة من منتصف الظهيرة يعدون طعامهم، وكانت تلتف حول الرائد بعض الأشكال بنية اللون تجيب على أسئلته. كانوا يرتدون سراويل بيضاء متسخة، وكذا أكمام السترات، بينما ثيابهم المصنوعة من الفرو ملقاة على الأرض. أما الآخرون الذين كانوا فى استقبال الرائد عند قطعة الأرض البعيدة الممتدة، فقد قدموا على الجياد النحيفة التى تحمل سرجا أو غطاء، وبدلا من اللجام كان هناك مجرد حبل. نزل العبيد عن جيادهم وأمسكوا بها، واستداروا حول الرائد الذى نزل – كذلك – من فوق جواده، وأعطاه لهم كى يعتنوا به.

لم يتحدثوا معه بشأن عملهم فقط، بل شمل الحديث موضوعات أخرى. كان يعرف اسم كل واحد منهم، وكان اجتماعيا جدا معهم،

كما لو كان واحداً منهم، وعلى ما أعتقد – فقد أشعل نوعاً من الحماسة وسطهم، وكما هو الحال لدينا فى الجبال، فقد كانوا يطلقون العنان للحيوانات طوال فصل الصيف. كانت هناك الأبقار البيضاء ذات القرون الطويلة، التى ترعى فى الحقول، وتقتات من أعشاب الصحراء، التى تحوى بعض التوابل ورائحة الأزهار، والتى يجب علينا نحن قاطنو جبال الألب ألا نأمنها تماما.

كان برفقة تلك الحيوانات بعض الناس، يعتنون بها، حتى فى العراء، حيث لا يجدون فوقهم سوى السماء، ونجوم المرج، وغالبا ما توجد – كما رأينا، بعض العيدان، أو كوخ محفور فى الأرض.

كانوا يمتثلون أمام الرائد، أو "سيد الأرض ومالكها" كما يطلقون عليه هنا، ويصغون إلى أوامره، وحين امتطى الجواد مرة أخرى، أمسك باللجام شخص. عيناه تلمعان وسط سمرة وجهه وحاجبيه، بينما انحنى شخص آخر ذو شعر طويل وشوارب كثيفة، وأمسك له الركاب، صاح وهو يمتطى الجواد: فى رعاية الله يا أولاد، سوف أقوم بزيارتكم قريبا، وحين يحضر الجيران، سوف نأتى إلى الحقل يوما بعد الظهيرة، ونتناول الطعام لديكم.

قال تلك الكلمات بالمجرية، ثم قام بترجمتها لى إلى الألمانية بناء على طلبى، وفى أثناء امتطاء الجواد قال لى: "إذا رغبت يوما فى زيارة هذا الحقل، وأردت كذلك أن تكون

بمفردك، كى تقضى وقتا طيبا مع هؤلاء الناس فعليك بالاحتراس من الكلاب، فهم ليسوا دائما غاية فى الألفة والبراءة كما رأيتهم اليوم، فقد يتعاملون معك بخشونة. لذا يجب أن تخبرنى مسبقا، حتى أوصلك إلى هناك، أما إذا لم أستطع ذلك سأرسل معك خادما يكون محل ثقة، ويكون محبوبا أيضا من الكلاب".

عندما أتينا إلى مكان الرعاة، تعجبت كثيرا من الكلاب الكبيرة، الرشيقة، المجعدة الشعر، والتى لم أقابلها طيلة فترة ترحالى، كانت ترقد حول النار بجانبنا وتحثنا فى أدب جم كما لو كانت تفقه شيئا مما يدور، بل وتشارك فيه.

بمجرد أن امتطينا جيادنا، قفلنا عائدين إلى القصر حيث كان قد حل وقت الغداء، وكما حدث بالأمس، حين اقتربنا نحو الأرض التى يعمل بها الناس فى تجفيف المستنقع وتعبيد الطريق، قال لى وهو يشير إلى حقل القمح، الذى كان على بعد خطوات منا، وتبدو سنابله غاية فى الجمال: "حين تحتفظ تلك التلال الرائعة بنقائها، فإنه يجب علينا أن ندبر المال، حتى نستطيع إنجاز أعمال أخرى فى مناطق أخرى. إن الناس يعملون فى الأرض المقفرة طوال العام كى يكسبوا قوت يومهم، ويعدون طعامهم – كذلك – فى العراء بجانب عملهم، وعند النوم كانوا يذهبون إلى الأكواخ الخشبية التى تراها، وفى الشتاء، حين تتراكم الثلوج، نهرع إلى الأماكن المنخفضة التى

لا نستطيع الذهاب إليها الآن بسبب لين الأرض الشديد، ثم نحشوها بالحصى والأحجار التى نأخذها من تحت أشجار الكروم".

تجولت ببصرى فوق الحقول الرائعة، وأمعنت النظر فى الأكواخ الخشبية التى تحدث عنها. حتى رأيت دخاناً ضئيلا، ينبعث من مناطق متفرقة خلف الحقل ليشير إلى المواقد البدائية، التى يستخدمها الناس لطهى طعامهم. وما إن دخلنا إلى الحديقة، محاطين بالكلاب الكبيرة والصغيرة، حتى دق الجرس فى منزل السيد، داعيا إيانا والآخرين لتناول الطعام.

فى مساء ذلك اليوم لم أسأل رفيق سفرى عن هدفه بعد أن عقدت العزم على ذلك وأنا فى طريقى إلى الفراش.

قضيت وقت ما بعد الظهيرة بالمنزل كالمعتاد، بينما ذهب الرائد فى حوالى الساعة الخامسة فى الطريق الممهد، والمحفوف بشجر الحور الذى أتيت خلاله ليلا، ولا أدرى إلى أين ذهب بينما كنت منهمكا فى تفحص الكتب التى كان يزودنى بها، ويحضرها بأعداد متزايدة من مكتبه إلى غرفتى.

فى اليوم التالى كان لدى الرائد الكثير ليكتبه، قضيت اليوم كله فى متابعة الجياد بالمنزل، والتعرف على حاشيته. وفى اليوم الذى يليه أخذنى إلى مزرعة الأغنام التى كانت تبعد مسافة ساعتين على الجياد، حيث قضينا بها اليوم كله. كان لديه هناك بعض الخدم الذين

يبدو عليهم التمرس الشديد، وكانوا يشاركونه الاهتمام بتلك الأمور التى كانوا يحبونها.

لقد رأيت أيضا أن كل فرع من فروع أعماله يحتل ميزانية خاصة، حيث أخرج مبلغا من المال لصالح تربية الأغنام، كان قد اكتسبه من فرع آخر. كان كل شيء قد سجل ودوّن على الورق بمنتهى الدقة والانضباط. وكانت أسماء الحقول مرتبة فى صف عريض، بينما دونت أسماء المزارع والحدائق.

مرة أخرى رأيت مزرعة لتربية الخيول يقوم فيها الرعاة بتربية الأمهار والجياد الصغيرة بالإضافة إلى الأبقار.

اندمجت أكثر فأكثر داخل دائرة عمله، التى لم تكن لتقع فى حيز الحصر، وتعجبت كثيرا من مدى اهتمامه بتلك الأمور، فما عرفته عنه من قبل أنه أكثر شاعرية، إلى جانب كونه شغوفا بشتى ألوان العلوم.

ذات مرة قال لى: "أعتقد أن الإنسان لابد أن يبدأ من أرض الوطن، إن تاريخنا عتيق جدا، لكن هناك الكثير علينا أن نفعله، فقد حبسنا أنفسنا فى داخله مثلما تحبس الزهرة فى كتاب الذكريات. إن تلك الأرض المترامية الأطراف ما هى إلا جوهرة عظيمة علينا أن نحدد معالمها دائما أكثر فأكثر. إن العالم كله يبدو حينما يرتبط بالكفاح والنضال أكثر نفعا، وعلينا أن نشترك معه. لازالت تجرى فى جسد

تلك الأرض القوة والجمال، ولابد من إبراز الاثنين معـــا. لابـــد أنـــك أدركت ذلك حين جئتنى، إن تلـــك المـــروج هـــى الأرض الزراعيـــة السوداء شديدة النعومة، فى تلك المرتفعات المليئة بالأحجار اللامعـــة، والممتدة حتى تلك الجبال الزرقاء التى رأيتها فى الشمال حيث تغطيها حقول الكروم الواعدة بأنها من عصائر نبيذها، وتطـــل المعـــادن مـــن باطن الأرض بنظرة براقة. فى بلادنا نهران شامخان يمكن القول بأن الهواء أعلاهما ما زال راكدا ينتظر حتى ترفرف فيه البيارق الملونـــة. وفى وطننا يوجد شعب عديد الأجناس، بعضنا كالطفل الذى عليـــه أن يتعلم كيف يخطو أولى خطواته. ومنذ أن عشت وسط قـــومى، الـــذين يقدروننى أكثر مما تظن، ومنذ أن اكتسيت بثيابهم، وشاركت عـــاداتهم، واكتسبت إحترامهم، شعرت بالفعل وكأننى قد اقتنيت لنفسى الـــسعادة، التى ظللت أبحث عنها فى كل مكان".

منذ ذلك الحين وأنا لم أسأله قط عن هدفه الذى أخبرنى به فى رسالته. ولحسن الحظ.. كانت هناك أنواع مختلفة من الغـــلال التـــى جذبت انتباهه. تبدو ممتلئة بالنضرة والجمال، حتى انتابنى الفـــضول، بالسؤال عن الوقت الذى يمكن أن تنضج فيه هذه السنابل وعن الوقت الذى نحملها فيه إلى مخازننا.

كانت وحدة تلك الأعمال وقوتها تذكرنى دائما بالرومان القدماء الأقوياء، الذين كانوا يعشقون الزراعة أيضا، كما كـــانوا يفـــضلون أن يظلوا فى وحدة واحدة وأقوياء على الأقل فى عصورهم الأولى.

راودت نفسى: كم هى جميلة وأصيلة تلك التقاليد التى يتبعها ابن الريف، وذلك حين يفهمها ويقدسها. ففى بساطتها وتنوعها، وفى التعايش مع الطبيعة الخالية من الآلام، تتجسد أسطورة الفردوس.

ذات يوم مكثت طويلا فى منزل الرائد، حيث أبصرت الأشياء نفسها من حولى، وتعلمت أن أفهم وأدرك. بدأت تتضح الأشياء أمامى، ويزداد كذلك نجاحى فى فهمها. ومر اليوم بأحداثه المعتادة فى خصوصية تامة، الأمر الذى جعلنى أشعر بالسعادة، ناسيًا مدن الوطن التى جئت منها، وكأنها شيء ضئيل يدور فى فلك تلك الأحداث.

مرة أخرى ترجلنا عن جوادينا فى الحقل، وفى تجمع بجانب الرعاة، أولئك القائمون على تربية الأبقار، مما أسفر عن جمع غفير من هؤلاء الناس من حولنا. وهنا قال لى الرائد، ونحن فى طريق العودة إلى المنزل، وفى تلك المرة كان قد ألحق جيادا جميلة بحافلته، وكانت تلك الحافلة عريضة جدا، وتطوى البرارى من تحتها طيا: "أستطيع قيادة هؤلاء حتى تسيل دماؤهم من شدة السير بمجرد أن أترأسهم، فهم تحت إمرتى المطلقة، كذلك الآخرون، الحاشية والخدم بالمنزل، مستعدون للتضحية بأجسادهم قبل أن يتجرأ أحد ويحاول أن يمس شعرة من رأسى. وإن أضفت إليهم أولئك الذين يعملون لدي فى الزراعة، والذين يخلصون لى من أعماق قلوبهم، فسوف يكون لدى عدد لا بأس به ممن يحبوننى. كيف تكون الحال حين تقود مئات

الآلاف وتهديهم إلى الشيء الصالح!، إن معظمهم كالأطفال حين يثقون بشخص، فإنهم يتبعونه نحو الصالح مثلما يتبعونه نحو الفاسد".

بعد برهة واصل حديثه قائلا: "ذات يوم ظننت أننى سأصبح فنانا أو عالما، إلا أننى تيقنت أنه يجب على هؤلاء أن يقولوا حكمة جادة للإنسانية، تشجعها وتجعلها أكثر نبلاً وعظمة – أو على الأقل– فإنه يجب على العالم أن يخلق أو يكتشف أشياء، ترقى وتسمو بالبشر نحو صلاح الأرض، ومن الضرورى فى كلتا الحالتين أن يكون لمثل هذا الإنسان قلب كبير متواضع، وحيث إننى لا أملك هذا فقد تركت الأمور تسير فى طريقها المعتاد ثانية، ونسيت هذا الأمر".

حين تفوه بتلك الكلمات شعرت وكأن طيفا رقيقا يمر أمام عينيه، اللتين تنظران فى تلك اللحظة بتلك الحماسة القديمة حينما كنا نقضى أوقات فراغنا فى مدينة "إيبوميو"[٨] وكما لو أن بحرًا كاملاً يحوطنا بزرقة السماء أو كبحيرة متلألئة على الأرض.

كان يتحدث عن كل أمانى القلوب الشابة وأحلامها وواتتنى الفرصة لأفكر، إذا ما كان قد وجد السعادة التى تحدث لى عنها أم لم يحن الأوان بعد. كانت تلك هى المرة الوحيدة منذ تعارفنا التى ألمح لى فيها عن ماضيه، الذى لم يصارحنى به من قبل. ومن ناحيتى لم

---

(٨) مكان بإيطاليا.

أسأله قط حتى فيما بعد. إن الذى تكثر أسفاره يعرف جيدا كيف يترفق بالناس ويقدرهم، ويتركهم فى هموم حياتهم التى لا تنتهى.

أقمت طويلا فى "أوفار" حيث طاب لى المكان هناك لأننى كنت أراقب ما يجرى باهتمام وكثيرا ما كنت أشارك فيه، وأدون ما يجرى فى مذكرات أسفارى وخبراتى.

لكن ما أيقنته تمام اليقين، هو أن هناك شيئا يعكر صفو حياة الرائد، ولا يتركه يظهر بوضوح للناس من خلال حكمته السديدة. وجدت شيئا من الحزن، الذى لا يظهر لدى رجل، إلا فى هيئة عقلانية وجدية.

كان بسيطا جدا فى حياته، وفى علاقاته بى كذلك، ولم يكن هناك أدنى تحفظ أو رياء وكانت هنالك صورة موضوعة فوق المنضدة فى حجرة مكتبه، التى كنت أتردد عليها كثيرا، حيث نتحاور فى موضوعات عدة فى أوقات القيلولة القائظة، أو فى المساء على ضوء الشموع، عندما لا نخلد للنوم.

كانت صورة صغيرة، محاطة بإطار ذهبى جميل لفتاه فى العشرين من عمرها – أو الثانية والعشرين – لكن من الواضح أنها لم تكن فتاة حسناء، بل قبيحة المنظر، وهذا ما أراد الرسام أن يخفيه. كان لون الوجه الداكن غريبا وكذلك الجبهة، وكان بها شىء من القوة والصلابة، وكانت النظرة عنفوانية كنظرة شخص صارم.

وبدا لى، أن تلك الفتاة من الممكن أن تكون قد لعبت دورا فى حياته السابقة. وواتتنى الفكرة، لماذا لم يتزوج هـذا الرجـل، مثلمـا واتتنى هذه الفكرة فى إيطاليا عندما تعارفنا لكنى لم أسأله وقتهـا ـ لأن مبادئى كانت تمنعنى من طرح هذه الأسئلة كما هو الآن.

كانت الصورة موضوعة فوق المنضدة فى صمت، ولم يكـن أحد من حاشيته ليدخل الحجرة، وإنما يظلـوا واقفـين فـى البهـو ويطرقون جرسا عند الدخول إذا أراد أحدهم أن يخبره شيئا، كـذلك كان ممنوعا على معارفه أو زائريه أن يدخلوا إلى الحجـرة، وكـان يستقبلهم دائما فى المنزل الآخر وهكذا، كانت تعتبر تلك درجة مـن الثقة، أن يسمح لى بالدخول، وأن أطلع على كل شيء، وتمنيت لـو تحين الفرصة كى أشكره على تلك الثقة.

فى تلك الأثناء جاء وقت الحصاد، ولم يغب هذا الوقت البهيج عن ذهنى للحظة واحدة وكان عليه فى بعـض الأحيـان أن يقـوم برحلات قصيرة إلى المناطق المجاورة، وكان يدعونى معه أيضا. لم تكن المسافات بين المناطق بهذا البعد فى أى بلد كما هى الحال هنـا، وكانت تقطع بامتطاء الجياد السريعة أو ركـوب العربـات الخفيفـة وتكون رحلة العودة فى وقت مماثل.

وذات مرة، كان الرائد يرتدى ذلك اللباس الـشعبى المجـرى الضيق، الموشى بالحلى، وعلى جانبه السيف، كان ملائما عليه جدا، ثم ألقى حديثا بالمجرية لجمع من حاشيته حول شئون عامة.

كعادتى فى كل بلدة أذهب إليها.. أن أتعلـم كثيـرا مـن اللغـة، وبسرعة، وبمجرد أن تحين الفرصة. فقد تعلمت من رجال الرائد، وكـل من حولى، شيئا من المجرية، لذا فقد فهمت بعضا من الحـديث، الـذى كان به شيء من الإطراء وكثير من اللوم.

فى رحلة العودة إلى المنزل قام بترجمة الحـديث لـى إلـى الألمانية. وعلى المائدة فى وقت الظهيرة، إذا بى أراه فى ذلك اليـوم بالسترة الرسمية، كما كان يفعل الناس قديما فى إيطاليا، وكذلك كـان معظم الحاضرين فقد نزعوا عنهم ملابسهم الشعبية، وارتدوا السترات الأوروبية الرسمية المعهودة.

رافقته كذلك فى رحلاته الأخرى إلى الجوار، وهنا أدركت، أنه توجد أربع ضيعات، وأن الرائد يملك واحدة منها، لقد أسس منذ بـضع سنوات رابطة يتم من خلالها الارتقاء بالزراعة، ورفـع المـستويات الإنتاجية و ذلك من خلال العمل الشاق فى الممتلكات الخاصـة بكـل فرد، ثم تسير المناطق الأخرى على النسق نفسه، خاصة حين يـصبح مؤكدا، أن رغد العيش والحياة الكريمة ينبعـان مـن بـاطن الأرض، وكانت لتلك الرابطة قوانينها، وينضم إليها من يمتلك أراضيَ زراعية، وبخلاف تلك الضيعات الأربع الكبيرة النموذجية، التى كانت حتى الآن تمثل هيكل الرابطة، فقد بدأ الملاك الصغار فى محاكاة جيرانهم الكبار، دون أن يكونوا أعضاء فعليين فـى الرابطـة، وكـان يـسمح لكـل

المزارعين وغيرهم بحضور الجلسة بوصفهم مستمعين، أو راغبي مشورة بين الحين والآخر، وذلك فقط بعد تسجيل أسمائهم مسبقا.

كان لهؤلاء سهم وافر فى المشاركة، مثلما فعلت أنا فى جلسة عقدت لدى العضو "جومور" وكانت تبعد عن أوفار أربع ساعات بالجياد، ولم يكن هناك سوى الرائد "جومور"، بينما حضر عدد لا بأس به من المستمعين. فيما بعد ذهبت مرتين بمفردى إلى "جومور"، وقضيت لديه عدة أيام فى المرة الأخيرة.

حين أشرف موسم الحصاد على الانتهاء وأخذت ضخامة العمل تقل، قال لى الرائد يوما: حيث إننا مقبلون على فترة من الراحة فسوف نقوم فى الأسبوع المقبل بزيارة جارتى "بريجيتا ماروشيلي"، وسوف تتعرف فى جارتى "ماروشيلي" أعظم امرأة على وجه الأرض.

بعد مرور يومين على هذا الحديث، عرفنى على ابن "بريجيتا" الذى أتى إلينا مصادفة. كان هو الشاب نفسه الذى تناول معنا طعام الغداء فى أول يوم لى فى "أوفار"، والذى بهرنى بوسامته غير المعهودة. قضى اليوم كله لدينا واصطحبناه فى أماكن متفرقة من الضيعة. لقد كان – كما لاحظت فى المرة الأولى – فى سنوات الشباب الأولى، فى المرحلة ما بين الصبيانية والشباب. كانت عينه الرقيقة تحدثنى بلباقة، وكيانى كله ينحنى أمامه حين يعتلى صهوة

جواده بخفة وبساطه. كان لى صديق يشبهه، مات فى مقتبل العمـــر. لقد ذكرنى "جوستاف" به بشده – هكذا كان يدعى ابن "بريجيتا".

منذ أن تحدث الرائد عن "بريجيتا"، ومنذ أن عرفــت ابنهـــا، والفضول يتملكنى بشدة حتى أراها هى بشخصها.

عرفت قبل ذلك عن ماضى صديقى من السيد "جومور" حـــين كنت فى زيارته. كان "جومور" مثل بعض أصدقائه الـــذين عـــرفتهم عنده، رجلا اجتماعيا لبقا، تحدث لى ببساطة عما يعرفـــه. ويـــردف قائلاً:

"إن الرائد لم يولد فى تلك المنطقة، ولكن من الممكن أن يكون قد نشأ فى عائلة ثرية جدا، وشغف بالأسفار منذ صباه. ولا يعــرف أحد بالتحديد كيف نال رتبة الرائد، كما أنه لم يقم فى "أوفـــار" فـــى سنوات حياته الأولى، ولكنه جاء منذ بضع ســنوات، واســتقر فـــى ضيعته تلك، وأسس رابطة الأصدقاء، وأصحاب الأملاك الزراعيـــة. فى ذلك الوقت لم يكن هناك سوى عضوين فقط فى الرابطـــة همـــا "جومور" و"بريجيتا".

لم تكن رابطة بالمعنى المفهوم، فالاجتماعات و اللوائح لم توجـــد إلا بعد فترة، ولكن الجاران، "جومور" و"بريجيتـــا"، شـــرعا معـــا فـــى استصلاح أراضيهما فى تلك الناحية المقفرة. وكانـــت "بريجيتـــا" فـــى الأساس هى أول من شرع فى هذا الأمر. ولأنها منذ صغرها لـــم تكـــن

حسناء، فقد انفصلت عن زوجها الذى كان شابا مستهترا ولم تعد إليه ثانية. وحين ذاك ظهرت مع طفلها فى ضيعتها "ماروشيلي"، وبدأت تتغير لتمارس دور الرجال، وتبدأ فى فلاحة الأرض، وحتى الآن ما زالت تشبه الرجال فى ملابسهم، وفى طريقة امتطائها للجياد. ثم بدأت تجمع خدمها وحاشيتها فى همة ونشاط لترعى الأرض وتزرعها من الصباح وحتى المساء. عمل بلا توقف.

لقد أحدثت معجزة فوق الأرض الصخرية ويبدو أن الرائد قد عرفها، وبدأ يسير على نهجها فى ضيعته. ومنذ أن استقر فى "أوفار" لم يقم بزيارتها فى بادئ الأمر لسنوات عديدة. وذات يوم اعتراها مرض عضال، فأخذ جواده منطلقا عبر المروج وقام على علاجها حتى الشفاء. ومنذ ذلك الحين بدأت الزيارات تتوالى وقال الناس آنذاك، إنه استخدم قوة الشفاء المغناطيسية، ولكن لم تكن هناك معلومات مؤكدة عن هذا الأمر.

نشأت بينهما علاقة حميمة، وكانت المرأة جديرة بتلك الصداقة الدافئة، والسؤال الذى يطرح نفسه، هل هذا الحب المتوقد الذى كابده السيد الرائد تجاه السيدة بريجيتا، الدميمة والكبيرة فى السن، أمر طبيعى، أم لا ؟.

كم كان الرائد يود أن يتزوج "بريجيتا"، إن استطاع. وانتابه قلق بالغ، فقد لا يستطيع ذلك. ولأن أحدا لم يعرف شيئا عن زواجها،

فلم يكن من الضرورى استخراج شهادة وفاة أو طلاق. كان تداول الحقيقة لمصلحة "بريجيتا". وأدان الناس زوجها، الذى تركها منذ زمن مضى في استهتار مشين.

قال لى "جومور" تلك الأمور عن الرائد "وبريجيتا"، واقتضى الأمر أن أذهب مع "جوستاف" لزيارة بعض الجيران وذلك قبل أن يأتى اليوم المحدد لزيارة أمه.

فى عشية هذا اليوم، كنت مازلت أفكر فيها، بينما أصوات آلاف الحشرات الحقلية ترن فى أذني الغارقتين فى النوم، ثم تراءى لى الكثير من الأحلام الرائعة، التى حاولت استثمارها إلى أن وجدت نفسى واقفة فوق المرج أمام هذه السيدة الغريبة الفريدة من نوعها، الجالسة فوق جوادها، والتى زودتنى بالجياد، وأسرتنى بعينيها الساحرتين وشعرت أنى سأقف دومًا أمامها، ولم أستطع رفع قدم واحدة، أو أن أهرب بحياتى من هذا المكان.

وغرقت فى ثبات عميق، ثم استيقظت فى اليوم التالى، وأنا فى كامل الحيوية والنشاط. وجهزت الجياد وسعدت كثيرا أن أرى وجهًا يتلاقى مع وجه آخر رأيته مرارًا بأحلامى السابقة.

الفصل الثالث

ماضى البراري

قبل أن أسرد، كيف ذهبنا إلى "ماروشيلي"، وكيف تعرفت على "بريجيتا"، وكيف أتردد على ضيعتها، فإنه من الضرورى أن أسرد جزءا من حياتها السابقة. وبقدر تعمقى فى الأمور التى رأيتها من حولى، فسوف ينعكس ذلك بدوره على علاقتى بالرائد و"بريجيتا"، التى ستتضح لكم فى نهاية القصة، دون أن يكون ضروريا، أن أوضحها قبل الأوان، فأنا – كذلك – لم أدركها فى حينها، ولكن تبعا للتطور الطبيعى للأمور.

ويكمن فى الجنس البشرى الجمال الباهر، ونحن جميعا ننجذب نحو كل جميل، ولا نستطيع دائما أن نجزم أين يكمن هذا الجمال. إنه فى كل بقعة فى الكون. ومرة أخرى، فهو ليس فقط فى السجايا التى تولد مع منطق العقل. وكثيرا ما يختبئ الجمال، لأنه يقبع فى الصحارى المقفرة، أو لأن البصيرة فى كل عين فى غفلة من أمرها.

إن الجمال يقدس ويؤله، وهو ليس بمحسوس، لكنه لا يغيب عن مكان، ينبض فيه قلب بحرقة، أو به روحان تنصهران فى بوتقة

واحدة. وما دام توقف القلب عن النبض وماتت الروح، ووجدت، فإنه يمكن للإنسان أن يمتص رحيقها، ثم تنبت فى مكان آخر، لا يخطر على قلب بشر.

إنه شيء خاص بالإنسان دون غيره، ويزيده شرفا كذلك دون غيره، أن ينحنى أمامها. إن كل شيء ثمين فى الحياة، تسكبه هذه الزهرة في القلب المنعم بالفرح والسعادة. و كم هو شيء محزن، أن يوجد إنسان لا يملكها، أو لا يعرفها أو لا يستطيع أن يجد فيها أمرًا جديدًا.

وحتى قلب الأم يمكن أن ينصرف عن الطفل. إذا لم تعد هذه الأم قادرة على رؤية ذلك النور المنبعث منه أو حتى قبس ضئيل منه.

ذلك ما حدث مع الطفلة "بريجيتا". فحين ولدت، لم تكن تبدو كالملاك الجميل، كما يبدو الطفل عادة بالنسبة لأمه. كانت تضطجع فى المهد الفاخر الذهبى اللون، فوق أقمشة الكتان الناصعة البياض، ووجهها مفعم بالقتامة، كما لو أن بها مسًا من شيطان مارد. كانت الأم تحيد بعينيها خلسة، وتثبتهما على المولودين الملائكيين الصغيرين اللذين يلعبان فوق البساط الوثير. حين يأتى أناس أغراب، لا يلومونه و لا يمدحونه، ويسألون عن الأختين.

وهكذا كانت الأمور تزداد سوءا. كثيرا ما كان يدخل الأب إلى الحجرة لقضاء بعض حاجياته فقط. وحين تداعب الأم الطفلتين

الأخريين، وقلبها مملوء يأسا، لم تكن تنظر لعين بريجيتا السوداء الجامدة، كما لو أن بها مرضا هى تعرفه، فهى إذا ما بكت، تلبى لها احتياجاتها، وإن لم تبك، فإنهم يتركونها نائمة فى هدوء، ويهتمون بشئونهم الخاصة، بينما تنظر هى للون الفراش الذهبى، أو للزخارف المنقوشة على الحائط.

حين اشتد عودها، لم تعد بعد ترقد فى الفراش الضيق، بل كانت تجلس فى ركن من أركان الحجرة، وتلعب بمجموعة من الأحجار الصغيرة وتتفوه بأشياء لم تسمعها من أحد قط. وحين تتهمك فى ألعابها، فتصبح أكثر فظاظة، كانت تنظر حولها بعينيها الجاحظتين كما يفعل الصبيان حين يأتون بأعمال غير لائقة. كانت تفتعل المشاكل مع أختيها إذا ما أرادتا اللعب معًا، وحين تضم الأم الطفلة الصغيرة بين ذراعيها، فى لمحة فات أوانها من الحب والحنان، فإن المخلوقة الصغيرة لا تظهر المشاعر نفسها بل تبكى وتتملص من بين اليدين الحانيتين.

وأصبحت الأم بذلك أكثر حبًا و مرارة، لأنها لم تعرف أن البراعم الصغيرة عندما كانت تبحث عن الأرض الدافئة لحب الأم، ولم تجده، مما يضطر الأطفال أن تتحجر قلوبهم ويستمر عنادهم، ويقف الواحد فى وجه الآخر. وتزداد الهوة فى الاتساع.

حين كبر الأطفال، وبدءوا يقتنون لأنفسهم ثيابا جميلة، لم تكن "بريجيتا" لتبدل ملابسها وتغيرها، بينما كثيرا ما تتبدل ملابس أختيها

وتتغير، وتنهال على الأختين كلمات الثناء والمدح، أما هى فلا تسمع سوى الذم، كلما اتسخ ثوبها أو تجعد.

ثم بدأت الدراسة وتلقى العلوم. كانت ساعات الدرس تتم فى الصباح، حيث تجلس "بريجيتا" بالأسفل، وتحملق بجمال نادر، وبعينين – فى الحقيقة – جميلتين قاتمتين فى الكتاب البعيد أو فى الخريطة. وحين يوجه لها المعلم سؤالا غريبا مفاجئا. كانت تفزع، ولا تدرى بماذا تجيب.

وفى الليالى الطوال، أو حتى حين يجلسون فى غرفة المعيشة، ولا يعيرها أحد اهتماما، كانت تجلس على الأرض فوق الكتب المبعثرة أو الصور والبطاقات البالية. كانت تريد أن تدخل إلى قلبها عالما خياليا مبعثرا. لقد قرأت خلسة ما يقرب من نصف كتب أبيها، دون أن يدرى أحد، وكثيرا ما كان يوجد بالمنزل بعض الأوراق، مرسوم عليها أشياء غريبة متشابكة هى التى رسمتها بالتأكيد.

حين دخلت الفتيات طور المراهقة، كانت بريجيتا تبدو بينهم كالنبات الغريب، أصبحت الأختان ناضرتين جميلتين، وأصبحت هى نحيفة قوية. كانت فى جسدها قوة رجل، فحين تلومها إحدى أختيها، أو حتى تداعبها، كانت تثنيها بعيدا بذراعها النحيفة القوية. وكثيرا ما كانت تشارك فى أعمال الخدم حتى يتساقط العرق من جبينها.

لم تتعلم الموسيقى، بل كانت تمتطى الجياد فى براعة وقـوة، وكانت تجلس على حشائش الحديقة، وتحادث الأشجار بنبرة متهدجة مليئة بالتعجب.

بدأ الأب يبدى ملاحظاته حول شخصيتها الجافة العقيمـة. إذ إنها حين تتحدث، تتوقف فجأة، وتصبح أكثر خشونة وحدة. ولم يجـد نفعا ما كانت تعطيه لها أمها من إرشادات، وكانت تحك يديها معا فى حيرة شديدة، تعبيرا عن استيائها وكان أحب مـا عليهـا أن تلتـزم الصمت. وقد أغفل الأب أنها صارت يافعة، وعاقبها بدنيًا لأنهـا لـم ترد أن تدخل إلى حجرة المعيشة، فنظـرت إليـه بعينـين جـافتين غاضبتين ولم تنفذ ما طلب منها.

وحتى لو وجد من ينظر إلى روحها المختبئة وإلـى جمالهـا دون أن تستهين بنفسها. لكن لم يوجد أحد. ولم يستطع الآخرون، كما لم تستطع هى أيضا.

كان أبوها يعيش كعادته فى العاصمة ويحيا حياة مترفة. وما إن كبرت فتياته، حتى ذاع صيت جمالهن فى البلدة، وجاء كثيـرون لرؤيتهن.

وزادت حركة الزائرين بالمنزل عما كانت عليه. وخفقت قلوب كثيرة، وسعت لامتلاك تلك الجواهر التى تقطن المنزل. ولكن الجواهر لم تعرن اهتماما، أو كن وقتها صغارا جدا حتى يفهمن تلك التقربـات

والتوددات. وازددن اهتماما بتلك المداعبات، التى يفعلها الزائرون معهن. وقد ينشغلن اليوم كله بإصلاح ثوب أو بتنظيم إحدى الحفلات.

أما "بريجيتا" فلم تكن تسأل عن شيء، باعتبارها الصغرى، وكأنها لا تعلم ما يدور حولها. كانت توجد أحيانا فى بعض اللقاءات، حيث ترتدى ثوبا فضفاضا من الحرير الأسود، كانت قد حاكته بنفسها. وفى أحيان أخرى كانت تتجنب تلك اللقاءات، وتجلس فى حجرتها الخاصة، ولا يعلم أحد ماذا تفعل هناك.

ومرت عدة سنوات. وفى نهاية تلك السنوات، ظهر فى العاصمة رجل يدعى "إشتيفان موراي". كان محط الاهتمام أينما حل. قام والده بتنشئته فى الريف، حتى يعده لمواجهة الحياة. وحين أتم تعليمه كان عليه أن يقوم أولا ببعض الرحلات، ثم يتعرف بعد ذلك على المجتمع المناسب داخل وطنه الأم. كان ذلك هو السبب وراء قدومه إلى العاصمة.

أصبح على الفور محور الأحاديث، وأثنى البعض على عقله والبعض الآخر على أفعاله وطباعه. وقال بعضهم إنهم لم يروا فى حياتهم جمالا يضاهى جمال هذا الرجل. وكثيرون قالوا إنه عبقرى. ومثلما لا يخلو الأمر من الوشاية والتجريح قال البعض الآخر إن به شيئا من الوحشية والخجل، كما يبدو عليه، أنه قد نشأ فى الغابات. قال بعض الناس كذلك، إن به عزة وشموخًا، وإذا اقتضى الأمر، فهناك

النفاق بالتأكيد. كانت قلوب بعض الفتيات تتمنى فقط لو حظيت برؤيته للحظة واحدة.

كان والد "بريجيتا" يعرف عائلة الوافد الجديد معرفة جيدة. فقد كان فى سنوات سابقة يقوم ببعض الرحلات، وكثيرا ما كان ينزل عندهم فى ضيعتهم. ولم تنقطع صلته بهم إلا فيما بعد، حين استقر بالعاصمة. وما إن استعلم عن أحوال الضياع، التى كانت قديما جيدة جدا، فعرف أنها الآن قد تكون أفضل من ذى قبل، وسوف تتحسن أكثر فأكثر، حتى فكر فى نفسه، أنه حين يكون الإنسان فى منزله الخاص، ويفعل ما يحلو له، فيمكنه حينئذ أن يتخذ زوجا مرموقا لإحدى بناته. وحيث إن العديد من الآباء والأمهات يفكرون بالطريقة نفسها، فقد أسرع والد "بريجيتا" ليفوز بالأولوية، ودعا الشاب إلى منزله، فلبى الدعوة، وبدأت تلك الزيارات تتوالى وتزداد، لم تره "بريجيتا"، حيث كانت تقضى وقتا طويلا خارج غرفة المعيشة.

ذات مرة ذهبت إلى عمها، الذى أقام حفلا ودعاها إليه، وفى تلك الليلة كانت موجودة فى ثوبها المعتاد، المصنوع من الحرير الأسود، وقد وضعت على رأسها غطاء مزركشًا، كانت قد صنعته بنفسها، كانت قبيحة فى عيون أختيها. لم يكن أحد من أهل المدينة كلها يرتدى مثل هذه الحلية، لكنها كانت ملائمة جدا لبشرتها السمراء.

كان الحضور كثيرين جدا، وما إن نظرت فى مجموعة منهم حتى رأت عيني صبى، داكنتين رقيقتين تحملقان فيها. حادت ببصرها على الفور، وبعد فترة، حين أبصرت هناك مرة أخرى رأت العينين نفسهما تحملقان فيها مرة أخرى. كان ذلك هو "شتيفان موراي".

وبعد ثمانية أيام كان هناك حفل راقص فى بيت أبيها. وكان "موراي" من المدعوين، حيث إنه بعد أن بدأ الرقص الفعلى. ونظر حوله، وقد بدأ الاستعداد للرقصة الثانية، ثم ذهب نحو "بريجيتا"، وطلبها للرقص بصوت رقيق، قالت إنها لم تتعلم الرقص من قبل. فانزوى جانبًا، واختلط بالمدعوين. بعد فترة رأته "بريجيتا" وهو يرقص. فجلست على المنضدة، وظلت ترقب حركاته. ظل "موراى" يتحدث مع فتيات كثيرات، ويرقص ويمزح معهن. لقد كان فى تلك الليلة فى غاية الرقة.

وأخيرًا انتهى الحفل، وانصرفوا جميعًا نحو منازلهم. حين دخلت "بريجيتا" إلى حجرة نومها، التى نالتها بالتوسل والمثابرة، حتى تقيم فيها بمفردها، وبعد أن نزعت ملابسها، مرت أمام المرأة، ألقت نظرة سريعة، حيث رأت جبهتها السمراء تلمع، وكذلك الخصلة كالحة السواد الملتفة حولها. واتجهت صوب الفراش، لم تكن تطيق اصطحاب خادمة، سواء عند ارتداء الملابس أو نزعها، ثم رفعت الغطاء بنفسها وأزاحت أغطية الكتان ناصعة البياض، التى كانت

تحرص "بريجيتا" على أن تجعلها شديدة التماسك، ثم اضطجعت على الفراش، ووضعت ذراعيها النحيفتين أسفل رأسها، ونظرت إلى السقف بعينين متيقظتين.

الآن.. وبعد أن تكررت الزيارات التى كانت توجد بها "بريجيتا"، أصبحت مرة أخرى محط نظر "موراي". كان يحييها بإجلال، وحين تذهب بعيدا يأتى هو إليها بغطاء الرأس، وحين تكون غير موجودة بالمنزل، تنطلق حافلته على الفور لتنقله إلى المنزل.

واستمر هذا الحال زمنا طويلا....

مرة أخرى كانت لدى عمها، وبمجرد أن خرجت إلى الشرفة ذات الأبواب المفتوحة دائما بسبب القيظ الشديد الذى ساد البهو، وظلام الليل الدامس يلفها من كل الأرجاء، إذا بها تسمع وقع أقدام تتجه نحوها، ورأت شخصا يقف بجانبها. لم ينبس بكلمة إلا ما هو معتاد. ولكن حين يصغى المرء لصوته، تشعر منه بشيء من الرهبة فى صوته. ثم ابتدأ يمدح الليل. وقال إن الإنسان يرتكب خطأ فى حقه حين يذمه، فهو بارع الجمال وحانى القلب، وهو الوحيد القادر على إدخال الدفء والسكينة إلى القلب. وصمت عن الكلام، وصمتت هى كذلك.

وحين دخلت إلى الغرفة مرة أخرى، دخل هو أيضا معها، وظل واقفا لفترة عند إحدى النوافذ. حين رجعت "بريجيتا" إلى

منزلها فى تلك الليلة. أخذت تنزع الحلى عن جسدها قطعة قطعة، ثم ارتدت ثوب المساء أمام المرآة التى نظرت فيها طويلا. وانهمرت الدموع من عينيها، وكانت أول دموع تنهمر من أعماق نفسها، وأخذت الدموع تزيد وتشتد، وكأنها تبكى على كل لحظة من عمرها الضائع، عسى أن تلتئم جروحها. وجثت على ركبتيها، مثلما اعتادت أن تفعل دائما. كانت هناك بالمصادفة صورة صغيرة ملقاة بجانبها على الأرض. كانت صورة لأطفال مرسوم عليها أخًا يضحى من أجل أخيه. وضعت تلك الصورة بقوة على شفتيها حتى تجعدت وابتلت.

وبعد أن نضبت الينابيع وانطفأت الشموع، كانت لا تزال ملقية بيدها وجالسة على الأرض أمام المرآة مثل طفل أنهكه البكاء. وأخذت تفكر، وكانت تتأمل فى حِجرها شرائط ثوبها المبللة بالدموع، المعلقة حول نهدها البكر والنقى، ظلت هكذا بلا حراك. أخيرا بدأت تستنشق الهواء مجددا، ومرت براحة يديها فوق رموشها. ثم ذهبت إلى الفراش وأشعلت ضوءا خافتا فى مصباح الليل الذى صنعته ببعض الشموع الموضوعة خلف غطاء صغير، ثم قالت: هذا محال. هذا محال. وذهبت فى نوم عميق.

بعد أن قابلت مؤخرًا "موراي" بدت الأمور كما هى دون تغير. كان يهتم بها أكثر من الآخرين، على الرغم من أن سلوكه كان

خجولا يقارب الخوف والتردد، هنا تحدث إليها بالكاد، وهى كذلك لم تدن منه أدنى خطوة.

بعد أن سنحت الفرصة مرة أخرى كى يحادثها على انفــراد. استجمع شجاعته وأخبرها بأنه يشعر أنها تعرض عنه، فإن صح هذا الشعور، فهو يطلب منها أن تعرفه جيدا. ربما يحظى منهــا بــبعض الاهتمام، أو ربما تكون لديه بعض السجايا الحسنة، أو من الممكن أن يغرس فى نفسه بعضا منها، والتى قد تمنحه احتراما وتقديرا، حتـــى لو لم يتحقق له الهدف الأسمى الذى يطمع فيه.

أجابته: "لست معرضة يا "موراي"، كلا لست معرضة. ولكنى أيضا أطلب منك طلبا، لا تتقرب لى ولا تفكر فى طلب يدى، فقد تندم على ذلك".

"لماذا يا "بريجيتا". لماذا؟".

أجابت بصوت خافت: "لأننى أعرف أننى قبيحة المنظر، ولهذا كان طلبى فِى حُبِّى، أسمى من حب أجمل فتاة على وجه الأرض، لا أعرف مدى حدوده ونهايته، ولما كان من المستحيل فلا تطلب يدى. إنك الوحيد الذى سألنى إن كان لى قلب، لهذا لا أستطيع أن أخدعك".

كان بالإمكان أن تتحدث أكثر لولا تدخل بعــض الأشــخاص. كان فمها يرتعش من الألم، وعرف "موراي" أن قلبه لن يهــدأ بتلــك الكلمات، بل سيشتعل أكثر فأكثر.

زادت الطينة بلة، وسارت الأمور فى طريقها المحتوم، وبدأت القوة الدفينة والشعور الجياش يستيقظان في نفسها المقفرة، وانكشفت العلاقة على وجهيهما، وبدا المحيطون بهما يفكرون بأمور لا تقبل التصديق، وسرت الدهشة بين الناس يتساءلون ما هذا الذى يحدث؟ وبرباطة جاش أوضح موراى مكنون قلبه أمام الجميع.

وفى يوم من الأيام، وفى إحدى الحجرات، حيث صوت الموسيقى القادم من بعيد، والجمع محتشد للإصغاء إليه، إذا به يقف أمامها فى سكون، وأمسك بيديها وجذبها نحوه برفق دون مقاومة منها، وأحست فجأة بشفتيه على شفتيها، ثم ضمها إليه بلهفة وشوق. لم تكن بعد قد تذوقت طعم القبلة، فحتى أمها وأختاها لم يقبلاها من قبل. وبعد سنوات طويلة اعترف "موراي" يوما أنه لم يشعر قط بمثل تلك السعادة، إلا فى تلك اللحظة، وقتما شعر بتلك الشفتين المهجورتين واللتين لم تُمس من قبل.

الآن تهاوى الجدار، ثم مضى القدر فى سبيله، وفى غضون أيام قليلة أعلنت خطبة "بريجيتا" على هذا الرجل المهاب بمباركة أبويهما. وانبعث الدفء من أعماق تلك الفتاه المجهولة، كان فى البداية خافتا وضئيلا، ثم بدأ ينمو ويزدهر. لم تخن الغريزة ذلك الرجل، حين جذبته نحو تلك المرأة. لقد كانت بريجيتا قوية وطاهرة الذيل، وهُو ما فضلها عن النساء الأخريات، ولأنها لم تنهك قلبها

بأفكار الحب وصوره، فقد عصفت بين ضلوعها نشوة جامحة، ولأنها اعتادت على الوحدة، فقد شيدت عالمها الخـــاص بمفردهـــا. ودخـــل موراى فى مملكة جديدة مبهرة، تخص بريجيتا وحدها.

وفيما بعد حين تفتحت شخصيتها أمامه، أيقن من حبها الحـــار الذى يفيض مثل نهر ذهبى فوق كل الشطآن، ولكن أيضا فى نطـــاق محدود، وفى حين انقسمت قلوب باقى البشر بين شطرى العالم، ظل قلبهما متحدين وها قد عرف الآن شخصا واحدا، فأصبح أيضا ملكـــا لذلك الشخص.

وعاش "موراي" أيام الخطبة فى سعادة، أجنحة وردية حاملـــة بين طياتها القدر الدوار.

وأخيرا حل يوم الزواج. وبعد أن انتهت المراسم المقدسة، أخذ "موراي" عروسه الصامتة بين ذراعيه عند عتبة الكنيسة، ثم رفعها إلى حافلته، متجها نحو منزله، الذى شـــيده علـــى أرقـــى مستوى من الجمال والفخامة، وذلك بفضل ثراء والـــده، الـــذى وضع كل ممتلكاته تحت تصرفه. وكان الزوجان قد اتفقا علـــى الإقامة بالمدينة.

وحضر والد "موراي" من ضيعته الريفية، التى اتخذها مقـــرا ثابتا لإقامته. وللآسف لم تكن والدته لتشارك تلك الفرحة، حيث إنهـــا قد ماتت من عهد بعيد. ومن جانب العروس حضر الأب والأختـــان

والعم والعديد من الأقرباء، وكانت رغبة "موراي" وكذلك والد "بريجيتا" هى أن يكون الاحتفال عظيما ومهيبًا وبهيجًا، وهذا ما كان.

وبعد انصراف المدعوين، سار "موراي" وعروسه عبر مجموعة من الغرف المضاءة، وحيث كان عليها أن تختار لنفسها واحدة. ثم دخلا إلى غرفة المعيشة، وهناك جلسا معًا، وتحدث قائلا: "كم سارت الأمور علي أحسن وأطيب وجه. "بريجيتا" !لقد عرفتك جيدا، وحين رأيتك للمرة الأولى، أيقنت أنك ستحتلين مكانة خاصة فى نفسى، لكنى لم أعرف بعد، هل سأحبك للأبد، أم سأمقتك للأبد. كم هو جميل أن يتحقق الحلم".

لم تنبس "بريجيتا" بكلمة، وظلت تمسك بيده، أخذت تتجول بعينيها اللامعتين فى أركان الحجرة فى هدوء تام، وأصدرت الأوامر بفض ما تبقى من الحفل، وإطفاء الأضواء وإرجاع الغرف إلى حالتها الأولى. ونفذت الأوامر على الفور. ثم ذهب الخدم إلى غرفهم. وأسدل الستار على الليلة الأولى بالمنزل الجديد لتلك العائلة الجديدة، والمكونة من الاثنين، والتى تبلغ من العمر ساعات قليلة.

ومن الآن فصاعدا بدأت حياتهما معا فى المنزل، وبينما كانا يلتقيان فى صحبة المجموعات فقط، حتى فى فترة الخطبة، حيث يظهران فقط فى الأماكن العامة، أصبحا الآن يمكثان فى المنزل طوال الوقت. لم يخطر ببالهما أن سعادتهما تتطلب مؤثرا خارجيا،

وبرغم أن المنزل كان مزودا بكل ما هو ضرورى، بقيت هناك أشياء كثيرة ودقيقة، لابد من تحسينها وتجميلها.

أخذا يرصدان تلك الأشياء، وفكرا فيما يمكن من تطوير المكان وتحسينه وتزويده به، أو أخذ كل واحد منهما يبذل ما فى وسعه لتجميل المكان، وتزويده بكل سبل الراحة لاستقبال الزوار.

وبعد مضى سنة أنجبت له ولدا، وكانت هذه المعجزة الرائعة والجديدة سببا فى زيادة ارتباطهما بالمنزل، أخذت "بريجيتا" ترعى صغيرها، بينما انهمك "موراي" فى أعماله حيث كان والده قد تنازل له عن جزء من الممتلكات بدأ يديرها فى المدينة، مما تسبب فى ظهور صعوبات عليها مواجهتها بالطرق كافة وتراكمت بعض الأمور، التى كان من الممكن التغلب عليها أو تجنبها.

وحين شب الصبى ولم يعد بحاجة ملحة للرعاية المباشرة، وبعد أن نسق "موراي" أعماله، وبدأ يسلك الدرب الصحيح، شرع فى اصطحاب زوجته إلى الأماكن العامة والمجتمعات والمنتزهات وأماكن الترفيه، وهنا أدركت "بريجيتا" أن معاملته لها أمام الناس صارت أكثر رقة عنها فى المنزل ففكرت فى نفسها قائلة: الآن أعرف ماذا ينقصنى. وأخفت قلبها المكلوم بين ضلوعها.

وفى الربيع التالى اصطحبها هي والطفل فى رحلة. وحين عادوا ثانية على مشارف الخريف، اقترح "موراي" البقاء فى الريف

بإحدى ضيعاته حيث إن المقام بالريف أكثـر جمـالا وصـفاء عنـه بالمدينة. فوافقت "بريجيتا" وتبعته إلى الضيعة، وهنـا بـدأ "مـوراي" يزرع ويغير من شأنه، ويقضى ما تبقى لديه من الوقت فى الصيد.

ساقه القدر هنا ليلقى امرأة مختلفة تماما، عما اعتاد أن يراهـا دائما. وقد رآها خلال إحدى رحلاته التى يخرج فيها منفردا للـصيد. حيث اعتاد أن يمشى أو يمتطى جواده بمفرده ومعه بندقيتـه. وفـى إحدى المرات.. وهو ينزل بجواده خـلال أحـد الممـرات الحقليـة بخطوات متثاقلة، رأى أمامه فجأة وسط الشجيرات الكثيفـة عينـين ساحرتين مثل عينى غزال برّى غريبة البـراءة، وبجانـب الأوراق الخضراء كانت الوجنتان تتوهجان بحمرة الصباح.

لم يستغرق الوضع أكثر من لحظة، وقبل أن يتحقق "مـوراي" من هوية هذا الشخص القابع، فوق جواد بـين الـشجيرات، حـادت بجوادها، وانطلقت مسرعة فوق الأرض، وبين الشجيرات.

كانت تلك هى "جابرييلا" ابنة أحد النبلاء الطاعنين فى الـسن، والذى يقيم بالجوار. كانت مخلوقة برية، نشأها والدها فـى الريـف ومنحها الحرية الكاملة، لأنه أراد لها أن تشب بين أحضان الطبيعـة، حتى لا تتحول إلى دمية، وهو الأمر الذى لا يمكن أن يتحمله.

كان جمال "جابرييلا" واسع الأصداء، ولم يكن بعد قـد تـردد على مسامع "موراي" قط، لأنه لم يكن قد استقر فى ضيعته تلك كمـا أنه انشغل فى الأيام الأخيرة برحلته.

وبعد عدة أيام التقى الاثنان مرة أخرى فى المكان نفسه تقريبا، ثم توالت اللقاءات. لم يسأل أحدهما الآخر، من أنت، ومن أين تكون. كانت الفتاة تمرح وتضحك معه، ببساطة دون تكلف. وكثيرا ما كانت تتسابق معه بالجياد فى جرأة وشجاعة، وتنطلق إلى جواره كأحجية عجيبة متوهجة، وكان يشاركها المزاح، وكثيرا ما كان يتنازل لها عن الفوز.

ولكن فى أحد الأيام، بعد أن خارت قواها، ولم تستطع أن تعبر له عن رغبتها فى التوقف إلا من خلال محاولاتها المتكررة للإمساك بلجام جواده همست له ببعض الكلمات عند نزولها من فوق جوادها وهى منهكة، لتعلن فوزها. فى تلك اللحظة، وبعد أن أصلح ركاب جوادها الذى كان قد تحطم به شيء، ثم رآها تستند إلى جزع الشجرة، والإرهاق الشديد يعلو وجهها، جذبها نحوه بقوة وضمها إلى صدره وقبل أن يرى ما إذا كانت غاضبة أو مبتهجة، وثب فوق جواده وانطلق بعيدا.

كان ذلك ضربا من التهور، ولكن فى تلك اللحظة غمرته نشوة لا مثيل لها. وفى طريقه إلى منزله، ظلت صورة الوجنة الرقيقة، والأنفاس العذبة، والعيون البراقة عالقة فى ذهنه.

ومنذ تلك اللحظة لم يبحث أحد منهما عن الآخر، ولكن ما إن التقت عيونهما مصادفة وللحظات عابرة فى بهو أحد الجيران، حتى علت وجنتيهما حمرة ضاربة.

ذهب "موراي" بعد ذلك إلى إحدى ضيعاته النائية، وغير هناك كل الأمور تغييرا جذريا.

أما قلب "بريجيتا" فقد كان يحتضر، وملأ الخزى مكنون صدرها، فظلت صامتة، وسحابة مظلمة تظلل أركان المنزل. وأخيرا أخذت هذا القلب المكلوم والموجوع، وسحقته سحقًا بيدها.

وبعد أن عاد من حياته الجديدة فى ضيعته البعيدة، دخلت "بريجيتا" حجرته وطلبت منه الطلاق. فانزعج بشدة، وأوضح لها بعض التصورات من وجة نظره، أما هى فكانت تتفوه دائما بالكلمات نفسها: لقد أخبرتك أنك سوف تندم. لقد أخبرتك أنك سوف تندم. فهب واقفا وأمسك بيدها، وقال لها بصوت من أعماقه: "يا امرأة إننى أمقتك، أمقتك".

لم تنطق بكلمة، بل كانت فقط ترمقه بعينيها الجاحظتين اللامعتين. ولكن بعد ثلاثة أيام، حين حزم أمتعته ورحل فى ظلام الليل، إذا بها تعيد ما كانت تفعله قديما، حين كانت تتلو قصائد فؤادها المحب أمام شجيرات الحديقة، فاستلقت على بساط حجرتها من وقع الألم وسالت من عينيها دموع حارقة، كما لو أنها ستحرق ثوبها وبساط أرضها. كانت تلك هى المرة الأخيرة التى تبكى فيها على محبوبها، ولم تبك بعد ذلك قط.

كان "موراي" فى تلك الأثناء يمتطى جواده فى تلـك المنطقـة الحالكة الظلام. وفكر مرات عديدة أن يقتل نفسه بتصويب مـسدسه نحو رأسه الموجود داخل السرج. ومر بجواده أمام منزل "جابرييلا"، وكان الصباح قد أشرق، وهى تقف فى شرفة قصرها، لكنه لم يلـق لها بالا. وواصل سيره فوق جواده.

بعد ستة أشهر بعث بموافقته على الطلاق. كما تنازل لها عن الصبى، حيث رأى أنه سينشأ الآن وهو بين يديها بصورة أفضل.

لقد كانت حبه الأول، ولم يشأ أن يسلبها كل شيء، وهى التـى تعيش الآن بمفردها، بينما العالم بأسره ملك يمينه. أمـا مـا يخـتص بالممتلكات، فقد اهتم بها وبالصبى قدر المستطاع، وأرسل المـستندات المتعلقة بهذا الشأن برفقة كتاب الطلاق.

كانت تلك هى الإشارة الأولى والأخيـرة، التـى أعلـن بهـا "موراي" عن وجوده، ثم انتهى الأمر، ولم يعد يظهر ثانيـة. كانـت الأموال التى يحتاجها ترسل إليه محولة إلى أحد رجال البنوك بمدينة "أنتورب"(٩). هذا ما ذكره مدير أعماله فيما بعد، ولم يكن يعرف هذا الرجل أكثر من ذلك.

---

(٩) مدينة فى بلجيكا.

وفى تلك الأيام مات كل من والد "بريجيتا" وأمها وأختاها فى أعقاب بعضهم بعضًا. كما مات أيضا والد "موراي" بعد فترة وجيزة، حيث كان طاعنًا فى السن.

وهكذا أضحت "بريجيتا" فى وحدة تامة مع طفلها، بكل ما تحمله العبارة من معاني. ثم اقتنت منزلا بعيدا جدا عن العاصمة فى إحدى البقاع المقفرة، حيث لا تعرف أحدا. وأطلقت على هذه الضيعة اسم "ماروشيلي" مثل لقب عائلتها فقد استعادت لقبها الأصلى بعد الطلاق، وعاشت بالمنزل النائى لتتوارى هناك.

ومثلما كانت فى سنين حياتها الماضية، حين يشفق عليها أحد، ويعطيها دمية جميلة، وبعد أن تسعد بها قليلاً، تلقى بها بعيدا مرة أخرى. وتعبث بالأشياء الدميمة فى فراشها الصغير كالحجارة وقطع الأخشاب وما شابه ذلك، وهى الآن تحمل أهم ممتلكاتها إلى ضيعتها الكبيرة "ماروشيلي"، كما أخذت ابنها لترعاه وتحميه، وظلت عيناها متجهتًا بثبات على الفراش الصغير نفسه.

وحين كبر الصبى وانفتحت عيناه الصغيرتان، وكذلك قلبه، مد يده ليساعد أمه فيما أخذت على عاتقها أن تفعله. وفى البداية أبصرت الأرض من حولها وابتدأ عقلها يدبر لإصلاح القفار المحيطة، واكتست بثياب الرجال وعادت مرة أخرى تمتطى الجياد،

مثلما كانت تفعل قديما فى صباها، ونزلت بين الفلاحين الذين يعملون فى أراضيها. وكان الصبى يعتلى صهوة الجواد فى أى وقت، كان يرافقها أينما ذهبت. وبدأت أحاسيس أمه وأفكارها القوية، الخلاقة، الممتزجة بالأمل تتغلغل فى نفسه شيئا فشيئا، وأخذت تلك الروح تتسع من حولها، وهبطت سماء الإبداع والتغيير؛ إذ علت ربى خضراء، وجرت ينابيع المياه، وهمست عناقيد العنب، وأبدعت أحلى الأشعار فوق الأرض الصخرية الموحشة، تنمو فى القوه والقدرة يوما بعد يوم.

لقد قلدها الآخرون، ونشأت الرابطة، وتشجع المنعزلون، وتفتحت فوق الأرض المقفرة العمياء إنجازات عظيمة بإرادة بشرية حرة، مثل عين تخلب الألباب.

وبعد خمسة عشر عاما، بينما كانت "بريجيتا" تقطن فى "ماروشيلي"، جاء الرائد ونزل بضيعة "أوفار"، المكان الذى لم يكن قد عاش فيه من قبل. وتعلم من تلك السيدة – كما قال لى بنفسه – الكد والعمل. وحمل علاوة على ذلك لتلك السيدة حبًا عميقًا، الذى تحدثنا عنه من قبل، والذى جاء متأخرا.

والآن، وبعد أن سردت ذلك الجزء من حياة "بريجيتا"، لنستكمل معا تطورات الأحداث من حيث توقفنا.

الفصل الرابع

حاضر البراري

امتطينا الجواد تجاه "ماروشيلي"، وكانت "بريجيتا" هى الفارسة نفسها التى أعطتنى الجياد من قبل. وندت عن وجهها ابتسامة رقيقة، توحى بتذكرها للقاء الأول. واصطبغت وجنتاى بحمـــرة ملحوظـــة، حيث تذكرت البقشيش الذى أعطيته للخادم. ولم يكن هناك أحد مـــن الزوار سوانا نحن الاثنين: الرائد وأنا.

شرع يقدمنى إليها كواحد من زملائه، الذين تعرف عليهم فـــى رحلاته التى جمعت بيننا أكثر من مرة. كان فخورا بنمو علاقتى من مجرد معارف فى تلك الرحلات إلى أصدقاء تربطهم علاقات وطيدة. وغمرتنى السعادة فى تلك اللحظة، حين وجدت أنها تعرف تقريبا كل شيء عن علاقتى بالرائد، فمن المؤكد أنه قد أخبرها بالكثير والكثير. وشعرت أنها امرأة جديرة بمعرفة تلك الأمور.

أخبرتنى "بريجيتا" بأنها لا تنوى اصطحابى معها فـــى جولـــة بقصرها وحقولها، ولكنى سأعرف تلك الأشياء تدريجيا حين نخـــرج للنزهة. وألقت باللوم على الرائد لانقطاعه عن زيارتهـــا كـــل هـــذه الفترة، فما كان منه إلا أن قدم سيلا من الاعتـــذارات و المـــشاغل،

وأهمها أنه لم يرغب فى المجيء بدونى، كما أنه أراد أن يعرف مدى أحقيتى للقاء صديقته.

بعد ذلك دلفنا إلى بهو كبير، نلنا قسطا من الراحة، ثم أخرج الرائد لوحا إِرْدِوَاذِيًّا(*)، ووجه إليها مجموعة من الأسئلة بشأن العديد من الأمور، وكانت إجاباتها غاية فى البساطة والوضوح. وقام الرائد بتدوين بعض من إجاباتها. وبعد ذلك قامت هى أيضا بسؤاله عن أشياء مختلفة تخص الجيران، والأعمال التى تجرى الآن، وكذلك فيما يخص المجلس المحلى الحالى.

لقد لفت انتباهى مدى الجدية فى تناولهما لتلك الأمور منحيًا لوح الإردواذ جانبًا، ومدى الاهتمام الذى أولاه الرائد لآرائها. وحين تعجز عن فهم أحد الأمور فهى تعترف بجهلها، وتطلب مشورة الرائد.

بعد أن أخذنا قسطا وافيا من الراحة، انتقلنا فى نزهة حول ممتلكاتها، وقد كثر الحديث منا عن التغييرات التى حدثت بمنزلها. وعندما تتحدث عما يتعلق بمنزله، كنت أشعر بشيء من الرقة تتخلل حديثها، وكأنها تهتم بما يخصها. ثم أرته بهو الأعمدة الخشبية الجديد بحديقة المنزل، والتمست مشورته عما إذا كان عليها أن تزينه بأشجار الكروم، التى ستمتد كذلك إلى صحن منزله، مما يعطى

(*) نوع من الخشب. (المترجم)

مظهرا جذابا تحت شمس أواخر الخريف. واصطحبتنا إلى الحديقة، التى كانت منذ ما يزيد على عشرة أعوام - كما أخبرتنا "بريجيتا" - غابة من أشجار البلوط، أما الآن فقد تخللتها الطرقات، وتفجرت الينابيع، وجرت الغزلان وسط طرقاتها.

كانت قد شيدت سورا عظيما حول تلك المنطقة لحماية الحيوانات من الذئاب، وليكون شاهدًا على المثابرة والكفاح. وقد أخذت تكاليف بناء السور تدريجيًا من عوائد حظيرة المواشى وحقول الذرة، التى أولتها اهتماما بالغا. وبعد إتمام البناء كانت تجرى عمليات حراسة فى كل أرجاء الحديقة للتأكد إذا ما كانت هناك ذئاب تهدد الطيور الصغيرة، لكنّ شيئا من هذا القبيل لم يحدث.

فى البداية وضعت الأيائل والغزلان فى الحديقة المسيجة، كما اتخذت تدابير وقائية لحماية باقى الحيوانات من الأخطار الخارجية التى قد تهدد حياتها، إن تلك الغزلان لتدين حقا إلى تلك المرأة بالشكر على فعلها النبيل هذا. فحين ترى بعضهم فى أثناء سيرنا، لم تكن تنتابهم الرهبة أو الخوف، بل ينظرون إلينا بكل جرأة بعيون سوداء لامعة، و قادت "بريجيتا" ضيوفها و زوارها بكل مودة عبر الحديقة، التى كانت تحبها.

وذهبنا جميعا إلى أعلى، حيث حظائر الديوك البرية، وفيما نحن نتجول فى الممرات، إذا بسحابة تقف فوق قمم أشجار البلوط.

وسنحت لى الفرصة حتى أمعن النظر فى "بريجيتا" بعيونها الأكثر سوادا ولمعانا من عيون الأيائل، وقد بدت اليوم أكثر توهجا لاقتراب ذلك الرجل منها، الذى قدر إنجازاتها، وأجلّها، حتى بدت أسنانها أنصع بياضا من الثلج، وبدا قوامها أكثر قوة، رغم سنها الكبير.

كانت "بريجيتا" تنتظر الرائد فى ثياب النساء، وقد طرحت كل أعمالها جانبا، حيث كانت قد خصصت ذلك اليوم لاستقبالنا. وفى أثناء الأحاديث الدائرة والمتنوعة حول مستقبل القرية، والاهتمام بتحسين مستوى معيشة المواطنين البسطاء، وإيجاد أنسب الطرق للاستفادة من الأرض الزراعية، وإصلاح مجرى نهر الدانوب، والأصدقاء البارزين فى الوطن الأم، دخلنا إلى الجزء الأكبر من الحديقة. ولم تشأ أن تصحبنا حول ممتلكاتها – كما ذكرت سابقا – بل أرادت مؤانستنا فقط.

حين رجعنا إلى المنزل وقد حل وقت الطعام. وإلى المائدة قدم "جوستاف" ابن بريجيتا بوجنتين متوردتين. كان فتى ممشوق القوام مثل الزهرة النضرة. وقد قام اليوم بتفقد الحقول بدلا من أمه، ووزع الأعمال على الخدم، وأخبر أمه الآن ببعض الأشياء باقتضاب. كان يجلس على المائدة بإنصات وتواضع جم، وكان الحماس يملأ عينيه بمستقبل واعد وحاضر بلا مشاكل. وهنا أيضا جلست حاشية الخدم إلى المائدة، مثلما كان يحدث لدى الرائد. ورأيت صديقى "ميلوش" الذى بادر بالتحية، تذكرا للقاء القديم.

مر معظم وقت ما بعد الظهيرة فى مراقبة عدة أعمال، كانت جديدة على الرائد، وكذلك فى جولة بالحديقة وبجبل الكروم[١٠]. وافترقنا عند المساء، فرتبنا حاجياتنا وثيابنا، وألقت "بريجيتا" باللوم على الرائد، لارتدائه ملابس خفيفة، فقد سبق له أن فعل ذلك فى الأيام الفائتة، ممتطيًا جواده عبر هواء الليل البارد والقادم من منطقة "جومور".

ألا يدرى السيد الرائد مدى تقلب الهواء الندى فى تلك المنطقة، حتى يتعرض له هكذا.

لم يدافع عن نفسه، وأخبرها بأنه سيكون أكثر حرصا فيما بعد.

عرفت بعد ذلك أنه كان وقتها قد أهدى معطفه "البوندا" لابنها "جوستاف" والذى أتى دون المعطف، والذى انتابه الشك فى قول الرائد، إنه يملك معطفاً آخر فى حظيرة الخيول.

فى تلك المرة افترقنا وكل منا يحس بحرارة اللقاء والفراق، واهتمت "بريجيتا" بكل شيء، ثم دلفت إلى المنزل ثانية، بعد أن امتطينا جيادنا مرتدين ثيابا سميكة، وقد بزغ القمر فوقنا، وزودت "بريجيتا" الرائد ببعض النصائح، ثم انسحبت برقة وعذوبة.

---

(١٠) يعنى الكاتب حقول العنب، حيث إن العنب لا يزرع إلا فوق سفوح الجبال المعرضة للشمس، و لهذا يطلق عليها مسمى جبال الكروم. (المترجم)

كانت أحاديثهما طوال اليوم هادئة صافية، وبدا لى كأن شعورًا داخليًا مكتومًا يرتعش فى داخلها، خجل كلاهما من إبدائه، من منطلق أنهما كبار جدًا فى السن، لمثل هذه الأمور.

قال الرائد لى ونحن فى طريق العودة، حيث لم أستطع أن أكف عن مدح تلك المرأة: أيها الصديق، لقد كنت طوال حياتى الماضية إنسانًا مرغوبًا فيه بقوة من الآخرين، و لكننى لا أدرى عما إذا كنت محبوبًا بهذه الدرجة. إن علاقتى بتلك المرأة وتقديرى لها ليمثل أعظم سعادة بالنسبة لى على وجه الأرض من أى شيء آخر. قال تلك الكلمات بلا لوعة، ولكن بهدوء المتيقن، حتى أننى اقتنعت بحقيقة ما قال فى قرارة نفسي.

شعرت فى تلك اللحظة بأننى أحسد الرائد على تلك الصداقة الرصينة وهو الشيء الذى يخالف طباعى. وشعرت كذلك بعدم وجود شيء محدد فى هذا الكون يمكن الوثوق فيه، سوى عصاى التى أتجول بها من بلد إلى بلد آخر، والتى لا تبغي البقاء على وضعها المستقيم.

حين وصلنا إلى المنزل، عرض الرائد على البقاء لديه طوال الصيف والشتاء إذا شئت، وبدأ يعاملنى بثقة لا حدود لها، وسمح لى بالاطلاع على أدق شئون حياته، وشعرت بحب و ميل شديدين نحو هذا الرجل، وقبلت طلبه، ثم عرض تحمل مسئولية بعض أعمال

منزله، والتى ستظل فى عهدتى، وأخبرنى بأننى لن أندم، وأن هنالك فوائد جمة سوف تعود عليّ فى المستقبل. ووافقت على هذا الطلب أيضا.

وقد عاد عليّ ذلك بفوائد بالفعل، فاليوم لى بيت خاص، ولى زوجة أحبها، وأعمل من أجلها ومع كل عمل أقوم به، أدين بالشكر للرائد، كنت حين أؤدى بعض تلك الأعمال الشاقة، أرغب فى أن أقوم بعملى على أكمل وجه، وحين أفعل، فأننى أسعى للأفضل، واستفدت من هذا كثيرا، كما فخرت بنفسى كثيرا، وعندما تذوقت حلاوة الإنجاز، عرفت قيمة العمل الحالى الذى تعودت عليه، وأدركت أنها أعظم من حياة الدعة والخمول، التى كنت غارقا فيها.

مرت الأيام رويدا رويدا، وعشت فى "أوفار" وما حوله. سعادة لا توصف.

فى تلك الأيام كنت أتردد على "ماروشيلي" كفرد من أفراد هذه الأسرة، وعرفت كل ما يدور هناك، مما زودنى بالخبرة، وجعلنى محط اهتمام الجميع، ودهشت كثيرا من علاقة الرائد و"بريجيتا"، بل على العكس من ذلك كانت العلاقة بينهما من نوع شديد الغرابة. لقد كان حبا حقيقيا بين اثنين من جنسين مختلفين، لكنه لم يبد هكذا.

كان الرائد يعامل تلك المرأة العجوز بكل رقة وإجلال، مما كسا وجهها مسحة من الجمال. وكانت تعامل صديقها بالاحترام

والإجلال نفسه، ويبدو ذلك الآن من خلال كثرة الاهتمام بصحته، واحتياجاته اليومية، وما شابه ذلك، من أمور تربط المرأة بالحب، وكانت سعيدة بذلك، كوردة لا ترجو الذبول، ترتسم على وجهها وأعطتها مسحة من الجمال.

قال لى الرائد ذات مرة، إنهما تحدثا معا عن علاقتهما، وتوصلا إلى أن الصداقة الوطيدة والإخلاص، والتواصل المتبادل بينهما لابد وأن يستمر ولا شيء أكثر من هذا.

لقد آثروا البقاء فى إطار التقاليد الصارمة، ربما حتى أخر العمر، كما آثروا ألا يواجهوا القدر مرة أخرى، فهو بلا شوك حتى الآن، وأن هذا القدر غير مأمون العواقب. ومرت سنون طويلة على هذا الحال، وسيظل الحال هكذا دائما.

قال لى الرائد هذا الكلام، وجاء جواب القضاء و القدر دون انتظار فأنهى كل شيء سريعا، وبطريقة لم تكن فى الحسبان.

فى أحد أيام أواخر الخريف، أو بالأحرى مع بداية فصل الشتاء، كان الضباب الكثيف يغطى مساحات واسعة من الأرض. وسرنا بجيادنا الرائد وأنا فوق أحد الطرق الممهدة حديثا، المزدانة بشجيرات الحور، وفجأة سمعنا طلقتين ناريتين مكتومتين وسط الضباب.

صاح الرائد: "هذه أصوات غداراتى وليس غيرها". وقبل أن أتدارك الأمر، وأنطق بكلمة، انطلق بجواده كالبرق الخاطف على طول الطريق. لقد أثر هذا المنظر المرعب فى نفسى، لأننى لم أر فى حياتى جوادا يعدو بهذه السرعة. وما كان منى إلا أن أتبعه، لأننى شعرت بأن هناك خطرا يحدق بنا.

وأطلقت عنان جوادى حتى أدركته، ولكن ماذا وجدت هناك ؟، لقد وجدت نفسى أمام مشهد غاية فى العظمة والبشاعة فى الوقت نفسه، كما كان غاية فى المتعة، وشعرت بقشعريرة تتخلل أوصالى، وفرح غامر يملأ فؤادى.

فى ذلك المكان، حيث بقايا المشنقة والجدول يلمع، ممتلئا بعيدان الغاب، وجد الرائد الصبى "جوستاف" وقد بدا عليه التعب من جراء مقاومته لشرذمة من الذئاب.

كان قد أطلق الرصاص على اثنين منها، وهاجم آخر بعد أن قفز تجاهه وهو فوق جواده، لكنه استطاع التصدى له بطعنة مميتة من خنجره، أما الآخرين فقد أفزعهم بعينيه المشتعلتين غضبا، لكنهم ظلوا واقفين حوله يلهثون وهم متوثبون. وكانت أية حركة أو طرفة عين كفيلة بأن تتسبب فى نشوب صراع بينه وبين أحدهم قد يؤدى إلى هلاكه. وفى تلك اللحظة الحرجة ظهر الرائد، وحين وصلت وجدته أمامى كالمعجزة فى وسطهم كشهاب صاعق.

وتملك الرائدَ شعور مروع، دون خوف على نفسه، وألقى بنفسه نحوهم كحيوان مفترس، ولم ألحظ ترجله الخاطف عن جواده، لوصولى متأخرًا بعض الشيء، بعد أن سمعت صوت طلقتين من غدارته الثنائية العيار، ووجدت نفسى فى موقع الحدث، ولأرى خنجره يلمع فى وجه الذئاب، كما كان واقفا على قدميه. مرت ثلاث أو أربع دقائق، وفى لحظة أخرجت مسدسى، وأطلقت بعض الأعيرة النارية، فولت الحيوانات المتوحشة الأدبار فى الضباب واختفوا فى جوفه.

صرخ الرائد قائلا: "انتبهوا! فقد يرجعون ثانية". وقام بالتقاط الغدارات الملقاة على الأرض، وأخذ يزودها بالذخيرة مرة أخرى. وبعد تجهيز الأسلحة خيم السكون مرة أخرى. ولكن بعد برهة سمعنا عواء تلك الحيوانات، وكأنها تدور حول مكان المقصلة البلوطية.

أضحى من الواضح أن تلك الحيوانات الجائعة تتربص بنا، ومن الممكن أن تهاجمنا مرة أخرى لم يكن لدينا أدنى استعداد للدخول فى صراع آخر معها، ولا حتى مع واحد منها، كما كان الضباب يخيم على المكان، فقررنا العودة إلى القصر. ووصلنا إلى الأسوار الحديدية، وحين دخلنا، اندفعت إلى جوارنا الكلاب الجميلة الرشيقة وهى تنبح فى الضباب، كما كانوا ينبحون خلف الذئاب فى اتجاه الحديقة فى غضب.

صاح الرائد فى الخدم: "اركبوا جيادكم، وأطلقوا جميع كلاب الحراسة؛ فكلابى مسكينة لا تقدر أن تعمل شيئا واستدعوا الجيران كذلك، فإن لديكم اليوم الكثير لتواجهونه، وسوف أمنح كل من يقتل ذئبا ضعف ثمن طلقتين باستثناء ما تم قتله من قبلنا عند المقصلة، وربما تجدون عند المقصلة أحد المسدسات التى أهديتها لـ"جوستاف" العام الماضى؛ فإنى أرى واحدة فقط معه، وغمده الآخر فارغًا".

ثم تحول لى قائلا: "منذ خمس سنوات كنا نسير فى تلك الحديقة بأمان تام، دون أن يعترض سبيلنا أى ذئب. لكن مع بدء أحد فصول الشتاء القارس، لم تتحمل تلك الذئاب الطقس البارد فى المناطق الشمالية، فهاجروا إلى هنا".

امتثل الخدم لأوامر السيد، وبعد برهة كانت وفود الصيادين تحتشد وهى مدججة بالسلاح، وعلى أهبة الاستعداد. كان كل واحد منهم يمسك بأحد الكلاب المجعدة الشعر، ويتشاورون مع بعضهم بعضًا حول تلك المهمة، والتى ربما لا يرجعون منها قبل بضعة أيام. كنا نراقب تلك الحشود المتزايدة، دون أن نترجل من فوق جيادنا.

حين دخلنا إلى القصر وجدنا أن "جوستاف" به جرح غائر، فأخذناه إلى حجرته بالطابق الأول التى كانت تطل على الحديقة، وأمر الرائد بإشعال المدفأة، وتجهيز الفرش، وقام بكشف الجزء المصاب، وفحصه بنفسه.

كانت عضة بسيطة بالفخذ، ولكن النزيف، والقلق الذى كان يساوره، أدى إلى تدهور الموقف، وسقوط "جوستاف" مغشيا عليه. وفى الحال أرسل مبعوثا لإحضار الطبيب، وإعلام "بريجيتا" بما حدث. وجلس الرائد بجوار الفراش للاهتمام به، إلى أن حضر الطبيب لفحصه، ووصف له بعض العقاقير؛ لتعويض ما فقده من دم فى أثناء النزيف. ثم بدأ يطمئن الحضور قائلا: لا خوف من هذا النزيف، فإنه يعمل على تخفيف الألم. كما أن سبب الغثيان هو الانفعال الشديد، لذا فمن الأفضل له أن يستريح ليومين، وبعدها ستزول أعراض التعب والإرهاق.

الآن وقد شعر الجميع بالاطمئنان، غادر الطبيب المنزل، بعد أن قدم إليه الجميع أسمى عبارات الشكر والعرفان.

وقرب حلول المساء حضرت "بريجيتا" وكانت متوترة جدا، ولم تهدأ إلا بعد الاطمئنان على ابنها، وبدأت تتحسس جسده كله للتأكد من عدم وجود إصابات أخرى. وبعد أن جلست بجوار ابنها، أمسكت بروشتة الأدوية التى وصفها الطبيب.

فى المساء كنا قد جهزنا فراشا سريعًا فى حجرة المريض، حتى تبيت بجواره. وفى صباح اليوم التالى جلست بجواره مرة أخرى وهو نائم، وأخذت تصغى إلى أنفاسه، وحرصت على ألا يزعجه أحد.

ثم حدث مشهد يهز الأفئدة...

كان الصبح قد حل، فذهبت نحو حجرة "جوستاف" للسؤال عن أحواله. ثم دخلت إلى الحجرة المجاورة، التى تطل على الحديقة. كان الضباب قد انقشع، ألقت شمس الصباح بأشعتها الحمراء على أغصان الأشجار المتساقطة أوراقها داخل الحجرة. كان الرائد جالسا عند النافذة، وعيناه ناحية الزجاج، كما لو كان ينظر إلى الخارج.

أما حجرة المريض فكانت مظلمة بعض الشيء بسبب الستائر المنسدلة على الزجاج، وكانت "بريجيتا" جالسة إلى جوار ابنها، وفجأة انبعثت من بين شفتيها تنهيدة تدل على الفرحة، وكنت أرقب المنظر من خلال باب الحجرة. ونظرت أمامى، فإذا بى أجدها تنظر برقة ممزوجة بالشفقة والحنان فى وجه الغلام الشاحب.

وحين استيقظ، بدأ يشخص ببصره فى هدوء فيمن حوله، ثم طرقت مسامعى تمتمة، صدرت عن الرائد، وحين نظرت إليه، استدار بجسده نصف استدارة، وقد بدت الدموع بمقلتيه، مما أثار فضولى، وجعلنى استفسر عما يدور بخاطره، فأجاب بصوت متهدج: "إننى لم أرزق بطفل".

وفى تلك اللحظة ظهرت "بريجيتا" خلف الباب، حيث إنها من المؤكد قد سمعت تلك الكلمات ثم دخلت ونظرت إلينا، والخجل

يملأها. كانت نظرة تعجز الكلمات عن وصفها. وصدرت عنها كلمة واحدة فقط: "شتيفان"(١١).

وهنا استدار الرائد استدارة كاملة، و حملق كلاهما للحظة فى الآخر، وأقبل عليها سريعا، وأمسك بذراعيها بثبات تام، ولم أسمع شيئا سوى التنهدات العميقة الصادرة منه، خاصة حين أحاطت عنقه بذراعيها، وتعانقا بحرارة.

– "لا فراق بعد اليوم يا بريجيتا من الآن وإلى الأبد".

– "نعم، لا فراق يا خلى الوفي".

فى تلك اللحظة انتابنى الارتباك الشديد، وأردت مغادرة المكان، إلا أنها نظرت لى وقالت: "فلتبق كما أنت".

وا عجباه!، السيدة التى طالما رأيتها جامدة وصارمة، الآن تبكى وهى بين ذراعيه. ونظرت فى عينيها المليئة بالدموع، والجمال البهى يملأ وجهها، الأمر الذى جعلنى أتأمل عمق هذا التسامح، الذى يبدو أروع ما فى الوجود، وقال الرائد فى لهجة منقبضة: "يا زوجتى الطيبة المسكينة منذ خمسة عشر عاما فرق بيننا القدر، ولم يكن منك سوى أن تكونى المضحية".

---

(١١) مخاطبة شخص لآخر باسمه الأول فى اللغة الألمانية يعنى سقوط الكلفة فى الخطاب وإبراز مكنون مشاعر الحب الخالص تجاه هذا الشخص. (المترجم)

ونظرت إليه باستعطاف، وقد طوت ذراعيها: "التمس السماح، فأصفح عنى يا "شتيفان". إنها خطيئة الغرور، فأنا لم أفكر، كم أنك رجل رائع، إنها شريعة الجمال التى تحكمنا"، فوضع يده على فمها، وقال: "إنها حقا شريعة الجمال، وكان على أن أجوب العالم ترحالاً وراءها، حتى علمت أنها فى القلب، وأننى تركتها فى الوطن داخل قلب محب ومخلص لى، والذى أدركت أننى فقدته، لكنه كان يرافقنى أينما ذهبت طوال تلك السنوات. آه يا "بريجيتا"، يا أم طفلى، لقد كنت أمام عينى طوال الوقت. إننى لم انفصل عنك". فقالت: "لقد عشت سنوات من الحزن والندم. كم كنت رجلا رائعا.الآن فقط عرفت ذلك يا شتيفان".

وارتمت بين أحضانه مرة أخرى لتروى ظمأ الحنين الطويل، وكأنهما لا يصدقان أن الحظ عاد يبتسم لهما من جديد. كانا كشخصين، أزيح عن كاهلهما عبء ثقيل. وفتحت الدنيا ذراعيها مرة أخرى. كانت فرحة كالتى نراها فى وجوه الأطفال، سادت بينهم، وجمعت البراءة بين وجهيهما. وإن زهرة الحب النقية المقدسة هى التسامح، لذلك فإنها توجد دائما فى ذات الله وعند الأمهات. القلوب الجميلة تسامح كثيرا، أما الدميمة فلا تفعل.

تجاهل الزوجان وجودى مرة أخرى، وذهبا إلى حجرة "جوستاف"، الذى أحس بظلمة. كان يرقد مثل الزهرة النضرة، وينتظرهما فى هدوء تام.

صاحت "بريجيتا" بمجرد أن جاءا عند عتبة الغرفة المظلمة: "جوستاف، جوستاف، هذا أبوك، لكنك لم تكن تعرف هذا".

أما أنا فخرجت إلى الحديقة، وقلت فى نفسى: "كم هو مقدس ذلك الحب الذى يربط الأزواج. وكم أنت فقير ومسكين يا من تعرف عنه شيئًا، ولم تترك القلب يتذوقه".

وبعد فترة طويلة دلفت ثانية إلى القصر، فوجدت الأمور كلها على خير وجه. غمرت المنزل السعادة كأشعة الشمس الصافية، واستقبلت بحفاوة نتيجة لتلك السعادة الغامرة. فقد بحثوا عنى فى كل مكان، بعد أن اختفيت عن الأعين، حين انشغلوا بعضهم ببعض. وقاموا بإيضاح بعض الأمور أمامى على الفور بجمل متقطعة، أما البعض الآخر فى هذا الشأن فقد تم إخبارى فى وقت لاحق.

إذا كان "شتيفان موراي" هو صديق أسفارى. وكان يسافر تحت اسم "باتوري"، وهو اسم إحدى جداته وقد عرفته بهذا الاسم، ولكنهم كانوا يطلقون عليه لقب الرائد، وهى رتبة نالها فى إسبانيا، واشتهر بها. وبعد أن ارتحل فى كل أرجاء المعمورة مدفوعًا من أعماقه، استقر به المقام فى الضيعة المقفرة " أوفار"، المكان الذى لم ينزل بمثله من قبل، وحيث لا يعرفه أحد، واشتهر باللقب نفسه.

لقد كان يعرف جيدا أنه بجوار طليقته، التى تعيش وتعمل فى "ماروشيلي"، ولم يذهب إليها قط، حتى وصل إلى مسامعه نبأ مرضها

العضال، فهب من رقدته، واتجه إليها بجواده، ودخل إلى حجرتها، لكنها لم تتعرف عليه بسبب الحمى، ولازم فراشها ليلاً ونهارًا لرعايتها، والسهر على راحتها حتى كتب لها الشفاء.

وحين التقت أعينهما، تحرك الحب فى قلبيهما، لكن الخوف خيم على مستقبل تلك العلاقة، فاتفقا على أن تكون الصداقة الخالصة المجردة هى الرابط الوحيد بينها. وظل هذا الحال سنين طويلة، وظل العهد قائما، حتى مزقه القدر بسهم نافذ، اخترق قلبيهما، وعمل على إرجاع الرباط الطبيعى الرائع مرة أخرى.

الآن سارت الأمور على ما يرام..

بعد أسبوعين انتشر الخبر فى الناحية كلها، وانهالت عليهما التهانى من كل حدب وصوب. وقضيت الشتاء كله لديهم فى "ماروشيلي"، حيث عشنا جميعا لفترة عابرة هناك، كما أن الرائد لم يشأ أن يبعد "بريجيتا" عن صنيع يديها.

كان "جوستاف" سعيدا جدا، ولم يفارق الرائد طوال الوقت، وكان يدعوه دائما أعظم رجل على وجه البسيطة، وأصبح الآن يوقره ويحترمه باعتباره الأب، وينظر إليه كما لو كان إلهًا.

لقد عرفت فى ذلك الشتاء قلبين، الآن فقط أصبحا قلبا واحدا، حتى وإن تفتحت زهرة السعادة متأخرا.

لن أنسى تلك القلوب إلى الأبد!.

وارتديت مع الربيع ثيابى الألمانية من جديد، وأخذت عصاى الألمانية، وقفلت عائدا إلى وطنى ألمانيا، وفى طريق عودتى شاهدت قبر "جابرييلا" التى ماتت قبل اثنتى عشرة سنة وهى فى ريعان شبابها. وأمام شاهد قبرها الرخامى تنمو زهرتان كبيرتان من أزهار الزنبق البيضاء.

أكملت سيرى وذكريات جميلة رقيقة تداعب خيالى، حتى عبرت نهر اللايتا(١٢)، والتقت عيناى عن بعد بجبال الوطن الزرقاء الحبيبة.

---

(١٢) فرع من نهر الدانوب.

المؤلف فى سطور:

أدلبرت شتيفتر

أديب نمساوى، رسام وتربوى، ولد في ٢٣ أكتوبر ١٨٠٥ بقرية أوبر بلان **Oberblan** وهي قرية صغيرة تتبع حاليا جمهورية التشيك.

توفي بمدينة لينز **Linz** الواقعة على نهر الدانوب في النمسا في ٢٨ يناير ١٨٦٨.

دخل دير الرهبان بمدينة كريمز على نهر الدانوب، وغادره عام ١٨٢٦ حاملا شهادة الثانوية العامة إلى مدينة فيينا.

نشر ثلاث قصص: الكوندور (طائر الروخ) **der Kondor** وزهور الحقل **Fieldblumen** وقرية الربوة **Heidedorf** بين عامي ١٨٣٧ و١٨٤٨.

عاد إلى موطنه الأم مقدمًا قصته بريجيتا **Brigitta** والتي نسعد بترجمتها إلى اللغة العربية من خلال المركز القومي للترجمة.

نشرت عدة أعمال خالدة، أهمها: دراسات **Studien** ، وكريستال الجبل **Bergkristall**، والأحجار الملونة **Bunte Steine** وأخيرا رواية ما بعد الصيف **der Nachsommer**، ورواية فيتيكو **Vitiko**.

يقول عنه الكاتب الألماني الكبير توماس مان حامل جائزة نوبل في الأدب، بأنه أحد جهابذة الأقصوصة في الأدب العالمي، تميزت سمات كتاباته بالعمق والغرابة والشجاعة الكامنة في النفس والجاذبة للقارئ.

ويقول عنه عملاق الأدب الألماني هرمان هيسي: "يا لها من صورة مثلى يرسمها الأديب شتيفتر فيما يكتب، إنها صورة الصمت والوحدة لنوعية ما من البشر ولعلاقاتهم الإنسانية المتشابكة ينسجها خياله، ممثلة لديه النغمة الأساسية للأدب الرفيع والاعتدال والتدين... إنه أحد فطاحل الأدب النثرى الألماني".

المترجم فى سطور:

الأستاذ الدكتور: محمد أبوحطب خالد

تاريخ الميلاد: ١٨ أكتوبر ١٩٣٧م.

- دكتوراه الفلسفة في اللغة الألمانية وآدابها – كلية علوم اللغة الألمانية وآدابها – جامعة لايبزيج بتقدير ممتاز ١٩٧٣م.
- عميد كلية اللغات والترجمة – جامعة الأزهر (١٩٨٠ – ١٩٨٤)، (١٩٨٦ – ١٩٨٩).
- عميد كلية الألسن ورئيس قسم اللغة الألمانية – جامعة المنيا (١٩٩٧ – ٢٠٠٢).
- تجاوزت أعماله العلمية المائة والثلاثين حتى نهاية عام ٢٠١٠، ما بين بحث ومقال وكتاب (تأليف وترجمة ومراجعة لترجمة)، وأغلب هذه الأعمال منشورة باللغة الألمانية.إلى جانب إشرافه وتحكيمه ما يزيد على مائة وعشرين رسالة ماجستير ودكتوراه.

- حاصل على جائزة ووسام يـــاكوب وفيلهـــيلم جـــريم – ألمانيا ١٩٨٣.
- حاصل على وسام الاســـتحقاق مـــن الطبقـــة الأولـــى – ألمانيا ١٩٨٤.

التصحيح اللغوى : محمود حنــفى
الإشراف الفنـــى : حســن كامــل

يعرض الأديب أدلبرت شتيفتر في قصته "بريجيتا" لموضوع القضاء والقدر في إطار ما تخفيه أحداث الطبيعة والقدر، من ظواهر، تارة جاذبة وحانية، وتارة منفرة وقاسية، يعرض شتيفتر في هذه القصة علاقة متشابكة معقدة، يقوم بسردها والتعليق عليها شاهد العيان، حين تطأ قدماه أملاك صديقه الرائد شتيفان موراي. إن الراوي الذي سرعان ما يتملكه الإحساس الصادق بأن هناك قوى خفية تربط صديقه هذا مع جارته بريجيتا، المالكة لضيعة مجاورة، سرعان ما يتيقن أن صديقه الرائد البالغ من العمر خمسين عاماً، يكن في أعماق قلبه حبًا من نوع فريد لهذه المرأة الغريبة الأطوار التي تقاربه في العمر، والتي ينم مظهرها الخارجي عن دمامة ظاهرة وقبح ملفت.

تصميم الغلاف: نسرين كشك